الف ليلة وليلة

تاريخ حياتها (١)

« المحاضرة الاولى »

يخطو الدهر دائباً في وناه وكبرياه وصمت ، فيعفو الاثر . ويفري الحجر . ويبري الحديد ، وتنال يده العابثة كل شيء في حياة المرء بالتغيير والنقص ، الا شيئاً واحداً يلوذ منه بسواد القلب فيستقر في قراره ، ويكمن كمون السر في دخيلته وإضماره ، أريد به ذكريات الصبى ، واحلام الحداثة ، فهي باقية والجسم يخونه البلى ، ناجة والعيش تزعزعه الاحداث ، ناضرة والمنى يصوّحها اليأس ، مشرقة والنفس يغشاها من الهمّ ظلام وسحب ، فمن منكم ياسادة لا يذكر اول بيت أبصر فيه الوجود ، واول ملعب عرف فيه الرفيق ، واول مكتب رأى فيه المعلم ، واول موعد لاقى فيه الحبيب ?? ومن منكم لا يذكر ساعات السمر اللذيذة الهادئة ، في غرفة النوم الوثيرة الدافئة ، حيث كان أطفال الأسرة يتجمعون حول الجدّة الحنون . او الأم الرؤم . او الظئر الحانية ، فينصتون في سكون وشوق الى ماتقصه عليهم من روائع الأسمار . وبدائع الأقاصيص ، وهم من طلاوة الحديث وجاذبية الحادث وبشاشة المحدّث في حال لا يصف الشعور بها غير الشاعر ، ثم لا يلبث هذا الرحيق العجيب ان يخدر الاعصاب الطفلية الرقيقة ، فتغفو تحت جناح الكرى ، وتسمع بقية الحديث الشهي في الحلم !

هذه الاقاصيص الشائقة التي كانت لعقولنا الصغيرة سحرا ، ولعواطفنا المشبوبة سكرا ،

---

(١) محاضرة للعلامة السيد احمد حسن الزيات عضو المجمع العلمي العربي ألقيت باسمه في ردهة المحاضرات في ٢٦ شباط سنة ١٩٣٢ .

ولقلوبنا الفضة فتنة ، هي نوع من الاحلام والاماني تراءت في ليل الحياة الطويل ، ثم تجمعت في ذاكرة الزمن القديم ، وتنقلت من عهد الى عهد ، ومن مهد الى مهد ، ومن بلد الى بلد ، تحمل في طواياها نفحات الحكمة المشرقية العالية ، وعطور الازمن البعيدة السعيدة . فوجودها أثر لوجود الانسان ، لانها ظاهرة طبيعية من ظواهره : كالغناء والشعر والرقص فلا تعرف لها أولية . ولا تحدد في الغالب لظهورها علة . ولكن علماء الاساطير يزعمون أنها نشأت في الهند ، وهاجرت منها الى بلاد الفرس ، ثم رحلت الى بلاد العرب ، ثم استقر بها النوى في أقطار الغرب ، وفي كل مرحلة من هذه المراحل كانت تصطبغ بصبغة البيئة ، وتتأثر بخصائص الجنس ، وتتسم بسمات العقيدة .

وأما أبطالها الذين وُجدوا على الرغم من قانون الوجود ، ونازعوا أبطال التاريخ ثوب الخلود ، فقد كان لبعضهم ولا شك حظ من الحياة ، وشهرة بملازمة الاسفار وملابسة الغير ، فتحدث الناس اولاً بما فعلوا ثم سرّجوا حول أسمائهم وأنبائهم الاكاذيب والاعاجيب حتى أصبحوا أعلاماً على شخصيات مميزة في البطولة والحرب والحب والحيلة والكرم : كدعد وليلى في الشعر وابي نواس وجحا في التنادر .

أما أكثر الابطال فمن خلق الخيال ، ابتدعهم رموزاً للمثل الاعلى ، او القدر العابث او الجد العاثر ، او السلطان الجائر ، او الهوى المتسلط ، او الامل الآسي ، او الحظ السعيد .

وعلى ذكر الطفولة ومناغيات الامومة أراكم ولاريب تركتموني أنكم وعدتم بالذاكرة الى تلك العهود الحبيبة تقبلون سحرها ، وتستعيدون ذكرها ، وتصيخون الى ذلك الصوت الحنون ، ينبعث خافتاً من أعماق الماضي القريب او البعيد ، مردداً أسماء اولئك الابطال الذين طالما اكتأبتم لاكتئابهم ، وتألمتم لمصابهم ، وشاركتموهم بالعطف في نعماء الحب وبأساء الحرب ، ولأواء الخطب : من أمثال حسن البصري ، ونورالدين المصري والشاطر محمد ، والشاطر حسن ، الى آخر ما سجلته الذاكرة ...

انا كذلك يا سادتي ذكرت حين كتبت هذه السطور — هاتيك القبور التي ضمت هواي . ورفقة صباي ، ونوعاً من الحنان والاخلاص لم أذق له طعماً منذ غاض في هوة البلى منبعه ... ثم ذكرت شيئاً آخر : ذكرت مجلى من مجالي الأُنس في القاهرة كان جمة القلوب ،

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

وألفة النفوس ، ومستجم الخواطر ، فعصفت به روح المدنية الحديثة ، ذلك منظر المحدث او القصاص او السامر او الشاعر في مقهى الحي وهو في حلته الشرقية المفوّفة الضافية ، فوق صفته الخشبية البالية العالية ، وقد تجمع بين يديه ، وعن يمينه ، وعن شماله ، أوزاع العامة ، وشيوخ المحلة يستجمّون من كلال العمل اليومي برشف القهوة العربية ، وتدخين النرجيلة العجمية ، وتبادل العواطف الاخوية ، ثم الإصغاء المشترك الى (ابي درويش) وهو يقص بصوته العريض المتئد ، وجرسه الهادئ المتزن — حروب (عنترة) او وقائع (ابي زيد) او مخاطر (ابن ذي يزن) فينقلهم بقوة تمثيله او بحسن ترتيله ، على جناح الخيال — الى عصور هؤلاء الابطال ، فيشهدم مجد البطولة وسلطان الحب وفتك السحر وبطش المردة . ثم يرى الخبيث أن فورة الحماسة او الشوق قد طغت في النفوس لوقوع البطل في أسر او شدة ، فيسكت ليجمع النقوط من السمار والنظار . فلا يجد هؤلاء مندوحة عن تعجيله ليعجل هو الى إطلاق البطل من إساره ، وإنقاذ الجمهور من شدة قلقه ومرارة انتظاره . . .

وفي ليلة من هذه الليالي الساهرة تجدون هذه القهوة ذات الضوء الشاحب ، والصمت الحالم ، والمنظر الكئيب — قد خفقت فوقها الرايات ، وأشرقت في جوها الثريات ، وتلألأت في سمائها المصابيح ، وأخذت زخرفها بالسامرين ، وقد جلسوا متقابلين على الدكك العالية يطوف عليهم غلمان بأكواب من ذوب السكر المعطر بماء الورد ، وصاحبنا المحدث قد خرج الى القوم يتهادى في عمته المكورة وجبته المعصفرة وقفطانه الانيق الاصفر . وقد تدلت من حزامه الحريري ذلاذل تنوس على بطنه المنتفخ الضخم . فاذا استوى على عرشه المنجّد — توهج البخور من جانب وتضوعت العطور من جانب ثم خشعت الاصوات ورنت اليه العيون وأنشأ يحدث . فاذا بدا لاحد ان يسأل بعض الجالسين عن سبب هذا المهرجان عجب اولاً من انه لا يعرفه ، ثم أجابه بلهجة الفخور المزهو : هذه ليلة زفاف عبلة الى عنترة . . . فاذا كانت القصة قصة بني هلال — وجدتم هذا الهوى الجميع قد استحال الى عصبية شنيعة . ورأيتم إخوان الامس قد أصبحوا أعداء اليوم : فطائفة تتعصب لبني هلال . وطائفة تتعصب لبني زناتة . وهؤلاء يريدون الشاعر على ان يقص واقعة . واولئك يسألونه ان يقص اخرى ، والشاعر لا يجيب الا من يجزل له العطاء . فاذا رجحت كفة وشالت كفة أخذ يروي من ذاكرته وغيبه — على هوى الفئة الغالبة مالم يسجله تاريخ . ولم

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

بدونه كتاب . فيزوّر الغرائب ، ويختلق الوقائع ، ويقمّش مما خزنه في حافظتــه — من مختلف الاسمار ورقائق الاشعار ليحوك منها للبطل حلة تهزّ العجب في قلوب أشياعه ، وتلهب الغيرة في صدور خصومه ، فإما لحمة أخرى تميل به الى الجهة الثانية ، وإما معركة بين الحزبين تكون هي القاضية .

هذا الرجل الذي صورته لكم هذه الصورة المتقاربة ، هذا الرجل الذي ينام النهار ويجلس الليل يحدث اربع ساعات متعاقبة ، هذا الرجل الفكه اللبق الحافظ الواعظ — هو الاثر التاريخي والنموذج الحقيقي ، لذلك القصاص البارع الذي خلّف لنا كتابنا العالمي الخالد (الف ليلة وليلة) .

يرجع تاريخ هذا القصاص بإسادة الى صدر الاسلام ، والفضل في وجوده كان أبضاً للقرآن الكريم . فقد اشتمل كما تعلمون على مجملات من أخبار القرون الخالية والنذر الاولى ، وكان أعلم القوم يومئذ بتفصيلها — من أسلم من أهل الكتاب كتميم الداري ووهب بن منبه وكعب الاحبار وعبد الله بن سلام : فكان هؤلاء ومن أخذ عنهم يجلسون الى الناس في المساجد ، يفصلون ما في كتاب الله من قصص الانبياء ، ويسترقون في تهويل هذه الانباء ، ابتغاء للعبرة ، والتماساً للموعظة ، ووافق هذا الضرب من الوعظ هوى النفوس ، فازداد إقبال الناس عليه ، وكثر إفك القصاص فيه ، حتى طردهم امير المؤمنين علي من المساجد ، ما خلا الحسن البصري .

ولكن دهاة السياسة رأوا سلطان هذا الفن على العقول وقوة أثره في توجيه الميول — فاتخذوه لساناً للدعاية وسبيلاً لافتعال الاحاديث ، واختلاق الاقاصيص في الاغراض الحزبية المختلفة . بدأ بذلك معاوية فولى رجلاً على القصص كان اذا صلى الصبح جلس بذكر الله ورسوله ، ثم دعا للخليفة وحزبه ، ودعا على أهل خصومته وحربه . وكان هو اذا انفتل من صلاة الفجر جلس الى القاص حتى يفرغ من قصصه ، وكان ولاته وقواده يقدمون القُصاص في بعض حروبهم ليقصوا على المقاتلة أخبار الشهداء وما وعدوا به من حسن الجزاء . فعل ذلك الحجاج في العراق ، وجاراه فيه من حاربهم من زعماء الفرق . فقد ذكر ابن الاثير في حوادث سنة (٧٧) أن عتّاب بن ورقاء سار في أصحابه قبيل المعركة يحرضهم على القتال

ARCHIVE http://archivebeta.sakhrit.com

ويقص عليهم . ثم قال : اين القصاص ؟ فلم يجبه احد . فقال : اين من يروي شعر عنترة ؟ فلم يجبه احد .

وسار الشعر والقصص في ركاب السياسة جنباً الى جنب يشبهان على الناس وجوه الرشد، ويموّهان على العقول صور الباطل، والقصاص كانوا في ذلك أشدّ وطأة على الحق : لانهم ينسبون مايفترون الى التاريخ اوالى الدين . فلما هدأت ثائرة الاحزاب، وسكنت طائرة الفتن، ونضجت العقول — عاد القصاص الى المسجد، فوجد الواعظ قد غلبه على مكانه، والعالم قد فطن الى كذبه وبهتانه، والخليفة قد استغنى عنه برواته وندمائه، فانقلب الى العامة يسامرهم في أملائهم وأعراسهم بما أُثر من ايام العرب ونقل من أساطير العجم، وروى من أخبار الفتوح .

وانتشر القُصاص في العواصم العربية حتى صاروا ظاهرةً من ظواهر اجتماعها، وحاجةً من حاجات عامتها ورعاعها، واشتدت هذه الحاجة حين انفجرت الدواهي على العالم الاسلامي في أواخر العصر العباسي وبعده : من عنف المتسلطين من السلاجقة، وعسف المتغلبين من المغول، وغزو المتعصبين من الفرنك، فطلبهم العامة تفريجاً للكرب، والخاصة تشجيعاً على الحرب، ولكنهم كانوا في مصر أبرع صناعة، وأنفق بضاعة، وأرفع مكانة، لان طبيعة إقليمها، ونظام اجتماعها، وطباع سكانها كانت تعين على ذلك : فهي قطر زراعي ملوم الرقعة، متصل العمارة، يجود بالخير الكثير، على الجهد القليل، فكان لذلك أهله قليلي الاسفار يؤمنون بكل خبر، كثيري البطالة يميلون الى اللهو والسمر، وكانوا لاينفكون بين يسر متدفق طلق — اذا عم الفيضان، وعدل السلطان، واقتصد الموت وعسر متجهم كز — اذا فحش الغلاء، وألح الوباء، وبغى الحاكم . وعلى الحالين كان السامر اوالسامر عنصرين من عناصر الحياة يفترّان بهجة العيش في الرخاء، ويسرّيان كربة النفس في الشدة .

وكان اول من تولى القصص الرسمي في مصر سليمان بن عنتر التجيبي سنة ٣٨ تولاه مع القضاء ثم أُفرد به، ثم تعاقبت القصّاص من بعده في مصر على اختلاف بينهم في القدرة والغرض، فكانوا أصداء للعقيدة، وأبواقاً للسياسة، تسمع منهم في كل عهد لهجة، ولكل دولة سنداً وحجة . وترون ذلك أقوى ظهوراً في عهد الفاطميين . فقد كان (يعقوب

ابن كلس) وزير المعز يعتمد على المناظرات في نشر فقه الشيعة، وعلى القصص في جذب القلوب لاهل البيت . وكان مقتل الامام (علي) ومأساة الامام (الحسين) موضوع المنابر والسوامر في شهري رمضان والمحرم .

وقيل ان ريبة حدثت في قصر (العزيز بالله) فتناقلتها الافواه ورددتها الاندية فطلب الى شيخ القصاص يومئذ [يوسف بن اسماعيل(١)] ان يلهي الناس عنها بما هو أروع منها، فوضع قصة عنترة ونشرها تباعاً في اثنين وسبعين جزءاً سمرت بها مجالس القاهرة منذ ذلك الحين الى اليوم وهي الياذة العرب لا ينازعها هذا الشرف الى الآن عمل في آخر .

وفي القرن الرابع للهجرة كانت فورة هذا الفن ونهضته في بغداد والقاهرة . ففي عهدي (المقتدر بالله العباسي) و (العزيز بالله الفاطمي) كان القصاص الحكوميون والشعبيون يحتشدون لوضع الاخبار، ويتنافسون في جمع الاسمار، من الوراقين والرحالين والعامة .

ولكن القصص في العراق كان من عمل الكتاب، يصورون فيه أنبل عواطف الناس، وأجمل مواقف الحياة، ويلقونه زهوراً وعطوراً في مجالس الخلفاء، وسوامر الملوك، فكانت بلاغة المحدث وجلالة السامع ونبالة الموضوع تطبع القصة بطابع الجمال والاعتدال والقصر، وتنزع بها الى السليقة الغريبة المجبولة على الايجاز والقصد في الشعر والخطب والرسائل والقصص .

فما جمعه ووضعه (الجهشياري) و (ابن دلان) و (ابن العطار) في القرن الرابع من الاقاصيص في الحب الطروب، والترف المسرف، وما وضعه من قبل هؤلاء (سهل بن هرون) و (علي بن داود) و (أبان بن عبد الحميد) من الاسمار في الامثال الرمزية والحكمة العالية والسياسة الرشيدة، وما صنعه من قبل هؤلاء (عيسى بن دأب) و (هشام الكلبي) و (الهيثم بن عدي) من الاخبار في الهوى العذري والسخاء العربي في الاسلام والجاهلية — كل اولئك موسوم بسمة العقلية العربية الخالصة من حذف الفضول وترك الاستطراد وقلة المبالغة .

---

(١) وقيل انه الشاعر الطبيب ابو المؤيد محمد بن الصائغ الجزري . وممن قال بهذا الرأي الاستاذ كوسين برسيفال الذي طبع لهذه السيرة ملخصاً في باريس .

أما القصص في مصر فكان غالباً من عمل القصاصين والمسامرين ، يلفقونه من الكتب ، ويتلقفونه من الافواه ، ويحدثون به الدهماء في المجالس العامة . ورزق هؤلاء القصاص على قدر ماعندهم من القصص . فاذا ما انقطع احدهم عن الحديث لنضوب معينه انقطعت به أسباب العيش ، فهم لذلك مضطرون الى تطويل الموضوع بالاستطراد ، وبسط الحادث بالتزيد ، وجذب القلوب بالإغراب والمبالغة .

ومن ثم اتخذ الادب القصصي في مصر شكلاً لا عهد للادب العربي به . ذلك هو شكل القصة بالمعنى الذي نفهمه من كلمة رومان (Roman) في اصطلاح الفرنك ، فان المعروف الشائع من قبل — إنما كان المثل (Fable) والأقصوصة (Conte) والحكاية (nouvelle) وهذه الانواع قد تولد بعضها من بعض على نحو مايرى الاستاذ (برونتير) الناقد الفرنسي من تطبيق مذهب (دارون) على الانواع الادبية ، فالأقصوصة نشأت من المثل ، والحكاية نشأت من الأقصوصة ، والقصة نشأت من الحكاية ، باتساع الخيال وفعل المبالغة ، وحكم الزمن . ولكن القصة العربية قد تأخر نشوءها الى القرن الرابع حتى ظهرت بمصر ، لان عملها يقتضي التطويل والتحليل والعلم بطبائع الناس وأوصاف الشعوب ، والعرب في عهودهم الاولى كانوا أبعد بطبيعتهم ومعيشتهم عن هذه الامور ، ثم كانوا في عصور التحضر والاستقرار يؤثرون الخاصة بادبهم فيضطرون في حضرة الملوك ان يراعوا أدب الحديث فلا يغرقون في الحادث حتى يجانب العقل ، ولا يسهبون في السمر حتى يجاوز المجلس ، ولا يسفون في القول حتى يصادم الخلق ، اما القصاص المصري فقد تهيأت له الاسباب اللازمة لخلق القصة : كان سميره الاوزاع والعامة فلم يتقيد معهم بقوانين الخلق ، ولا بقضايا المنطق ولا بوقائع التاريخ ، فهو يصطنع اللهجة الصريحة ، ويستعمل الالفاظ القبيحة ، ويبالغ في الخلط والتلفيق ، قصداً الى الإغراب والتشويق ، ويعتمد غالباً على المفاجآت القوية ، ويستطرد كثيراً الى الحوادث العرضية ، ثم يصادم الوقائع ويشوه الحقائق ، لانه يجهلها ، والجمهور الذي يسمعه لا يعلمها ، فاستطاع بذلك ان يزور أغرب الحوادث ، ويجمع شتى الاحاديث ، ويترك لنا هذه المجموعة القصصية التي كانت ولا تزال للخاصة مبعث لذة ، وللعامة مصدر ثقافة .

كان القصاص المصري يعتمد في مادته على ما يصدر عن بغداد من الاقاصيص الموضوعة

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

والمنقولة ، والروايات القديمة الصحيحة والمدخولة ، ثم يضيف الى ذلك ماتنوقل سيف مصر وماتجمع من الاخبار من التجار والرحالين والبحارين ، فقد كان هؤلاء بعد عودتهم من البلدان النازحة يدونون ماراوا من الاعاجيب ، كافعل اليعقوبي وابن فضلان وبزُرك بن شهريار مثلاً ، إذ يحدثون بها الناس كأن يقولوا لهم ماحكاه ابن خرداذبة من ان في بعض الامم رجالاً عراض الوجوه ، سود الجلود ، لاتزيد قامة أطولهم على اربعة أشبار ، وفي جلودهم نقط حمر وصفر وبيض ، وإن فيهم من له أجنحة يطير بها ، ومَن رأسه كرأس الكلب ، وجسمه كجسم الثور اوالاسد ، وماجاء في كتاب (المستطرف) من ان في (البلغار) من طوله اكثر من ثلاثين ذراعاً ، يأخذ الفارس تحت إبطه ، كما تأخذ الطفل الصغير ، ويكسر ساقه بيده كما تقطع حزمة البقل . وما رأى الرحالون بالطبع هذه الاشياء ، وانما رأوا صورها على الآثار التي خلفها البابليون والفراعنة والرومان والفرس فظنوها حقيقة .

كان القصاص يتناول هذه الاخلاط فيؤلف منها قصة كثيرة الفصول والفضول ، تدور حوادثها على بطل واحد ، ولكنها تعرض من قبيل الاستطراد الى حوادث شتى ، لا يصلها بحياة البطل الا صلة واهية . انظروا مثلاً كيف صنع قصة (عنترة) : بناها على حادثة أصلية صحيحة : هي (حرب داحس والغبراء) التي شبت لظاها بين عبس وذبيان قبيل الاسلام . ثم دارت رحاها على قطب من أقطابها وهو (عنترة بن شداد) العبسي ، فذكر نشأته في حادثة خرافية جذابة ، ثم وصف رجولته وبطولته وفصاحته وحبه وكرمه ، وما اتصل بذلك من عادات البدو ، كالضيافة والحماسة والإجارة والشعر والغزو والسلب والثأر ، ولكن حروب عبس وذبيان معلومة فيها وطول لاتشغل بال السامعين طويلاً ، ولاتدرُّ عليه من المال كثيراً ، فهو يوقع الخصومة بين عنترة وبين فرسان العرب فيقابلهم ويقاتلهم ويسمهم جميعاً بالنكول والعجز . والقصاص في اثناء ذلك ينقلنا في السهول والاودية ، ويقلبنا بين المضارب والاخبية ، حتى جلا لنا من الحياة الجاهلية صورة صادقة لاتمثل في خواطركم من طريق التاريخ المقتضب المفكك الا بعد جهد . ثم يرى مع ذلك ان الشوق شديد ، وان الامد الذي يريده بعيد ، فيخرج البطل من الجزيرة العربية ويقدم به الى مصر بلد القصاص فيقود عنترة بها حروباً ، ويهلك شعوباً ، ويبتني حصوناً لا تزال العامة تعرفها الى اليوم باسمه ، ثم يذهب الى القسطنطينية ويزوجه من امرأة رومية . حتى اذا

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

ظفرت المنون اخيراً بالشجاعة الخارقة عاد ابنه من (بيزنطة) الى الحجاز فطالب بعرش ابيه وحارب معاديه ومغتصبيه ، والميتة التي اختارها القصاص لعنترة تدل على قدرة فنية عجيبة ، وكان (لامرتين) لا ينفك بها معجبا ، ومنها طروبا ، فقد ذكر أن (الاسد الرهيص) احد خصوم (عنترة) المقهورين الموتورين رماه غيلة بسهم مريش مسموم . فلما أحس البطل فعل الموت في جسمه الوثيق خشي على قومه من بعده شرّ الهزيمة وعار الفشل ، فوقف حيال العدو الثائر ممتطياً جواده ، متكئاً على رمحه ، وأمر جيشه بالتقهقر والنجاة . فارتد الجيش وبقي هو واقفاً يعالج سكرات الموت ، والعدو متحفز للهجوم ، ولكنه لا يجرؤ عليه خوفاً من عنترة حتى فاضت روحه على صهوة جواده ، وكان الجيش المتقهقر قد بلغ مأمنه ، فلما طال وقوفه ، وجاوز الحد سكونه ، ارتاب الجيش المهاجم ، فدبروا الحيلة لكشف الامر فأرسلوا الى جواده حجراً نحيه ، فلم يكد يراها الفرس حتى وثب وثبة خرّ لها فارسه على الارض صريعاً .

والغالب فيما أظن ان القصاص الماهر قد اخذ هذا الختام البارع من مصرع (سليمان بن داود) أمام عماله المسخرين من الجن ، وقد أجملته البلاغة المعجزة في هذه الآية الكريمة « فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته الا دابة الارض تأكل منسأته . فلما خرّ تبينت الجن ان لو كانوا يعلمون الغيب مالبثوا في العذاب المهين » .

ظهرت هذه القصة الحماسية الجميلة في عصر كان وادي النيل فيه منيع الحوزة ، باهر الجلالة ، صافي المورد ، لا يكدره والغ ولا واغل : فكان استقلاله يلهم العزة ، وعروبته توحي الشهامة . فلما هبت الاعاصير الموج بالبربرية الجامحة ، فأطفأت منائر بغداد ، وزعزعت عرش الخلافة ، وعبثت الهمجية الجاهلة بتراث العرب : من علم وادب ، وخلق ودين ، وعدت ذئاب الغرب باسم الصليب على الشام ومصر ، تنهج الهلال الآفل ، وتنهش المجد المائد — رأينا القصة المصرية تصور هذه الحياة الحزينة تصويراً عجيباً . ورأينا القصاص قد اتسع خياله ، بقدر ماضاق عمله ، فهو يخلق بلاداً لم توجد ، ويتصور حوادث لم تقع ، ويعتمد في العمل على الجن والسحر والخوارق .

فبين القرنين السادس والثامن من الهجرة — ظهرت في مصر سلسلة من القصص الطويلة الجذابة غُفلاً من أسماء مؤلفيها : لان القُصاص المحترفين إنما كتبوها لا لنفسهم فيما أرج

ثم توارثوها خلفاً عن سلف حتى بلغت عهد المطبعة ، فنُشرت على شكلها ، دون اسم ولا وسم ولا تعريف .

وأشهر قصص هـذا الدور سيف بن ذي يزن ، والاميرة ذات الهمة ، وفيروز شاه ، فأما أنها كتبت في هذي العهود فذلك واضح لادنى نظر من لغتها وأسلوبها وماتدور عليـه من عادات واعتقادات وصور ، وأما أنها كتبت بمصر فذلك ثابت من أماكن وقائعها ، واسماء اشخاصها ، فأبطالها جميعاً عاشوا بمصر ، حتى الذين لم يروها أقدموهم اليها ...

فالمهلهل بن ربيعة كان الوجه البحري ميدان حروبه ، وسيف بن ذي يزن هو الذي اجرى النيل من جبال القمر بكتابه السحري الذي دفنه في جزيرة الروضة بالقاهرة ، وهو الذي خطط مدن مصر ، فالجيزة اسم من أسماء زوجاته ، وسبك الثلاث ودمنهور الوحش قائدان من قواده ، والنيل تفرع الى فرعي رشيد ودمياط : لان الملك (سيفاً) وهو قادم به من السودان وقف بقاتل الكفار الذين اعترضوه في رأس الدلتا فوقف النيل بوقوفه ، ولكن الماء وراءه قدعب عبابه وطغت أواذيه فاندفق شطر منه الى الشمال . واتجه الملك بالشطر الآخر الى اليمين .

ومدينة (سمنود) أصلها سماء نود لان الحكيم (نودا) صاحبها قد عقد عليها سماء بالسحر توقعاً لغارات الملك سيف وهو ذاهب بالنيل الى مصبه . ثم دفنه المؤلف أخيراً فوق جبل المقطم ، وقال ان قبره هو الذي يعرف الآن بالجيوشي .

ولقد كان للحروب الصليبية أثر ظاهر في نسج هذه القصص في هذا الدور ، فان العواطف الدينية والحماسة القومية التي ألهبتها في قلوب المسلمين هذه الغارات قد حملت القصاص على ان يتملق هذه العواطف ويغذيها بما يلفق من الاشعار والاخبار في فضائل الجهاد والاستشهاد والصدق والصبر .

فسيف بن ذي يزن كان حنيفاً مسلماً يقتحم المعاقل والأرصاد على الوثنية والشرك في معالم الارض ومجاهلها ، وهو يقول : « لااله الا الله إبراهيم خليل الله » . وكذلك سائر الابطال في سائر القصص ، الا انهم كانوا بعد الاسلام لاقبله .

وبين القرنين الثامن والعاشر للهجرة كان حكم المماليك بفساده ، وحكم الاتراك باستبداده ، قد أتيا على مابقي من اركان الاجتماع ، وحللا أواصر الاخلاق والطباع ،

ومُني الناس بإلحاح الأوباء ، وشراهة الجباة والرؤساء ، واستشعرت نفوسهم ذل الحرمان والقهر ، فأخلدوا الى التصوف اوالى المجون ، وعالجوا همومهم بالحشيش والافيون ، وحارب بعضهم بعضاً بالشطارة والحيلة ، وتقاتلوا على حطام الحياة بالخديعة والغيلة ، وحال نظام الفتوة في مصر الى مناسر من اللصوص والعيارين ، يقطعون متون السبل ، ويعبثون بالامن والناس من ضعف السلطان يخضعون لهؤلاء ويجلونهم إجلال الزعماء ويتناقلون حوادثهم وأحاديثهم بالاعجاب والمبالغة فظهر حينئذ ذلك القصص الوضيع الذي يمثل هذه الحال بحقارتها وسفالتها ، ويصور تلك البيئة بخرافاتها وجهالتها ، كالقصص الذي يدور على (علي الزيبق) و (احمد الدنف) و (حسن شومان) و (دليلة المحتالة) او (دالة المحتالة) كما يسميها (المسعودي) . وأصبح أسلوب القصاص في هذا الدور دائراً بين الجهالة والقحة . فهو يستعمل في قصصه لغة مبتذلة وتراكيب فاحشة وجملاً محفوظة ووقائع واحدة يرددها في كل قصة . ويكررها في كل مناسبة . وكانت شهوة السهر والسمر قد بلغت مداها في ذلك الحين لتغلب البطالة على أهل القاهرة واعتقاد الناس في جميع الثروة على الحيلة والشعوذة والسحر والقدر . فتكدسوا في السوامر حول القصاص وقد تجمع لهؤلاء من خلال القرون ذخيرة وفيرة من الاساطير والاسمار . فهو يدونونها كما دونت تلك السير من قبل . فكان مما دون في تلك الحقبة الغريبة كتابنا وموضوع محاضرتنا (الف ليلة وليلة) .

(الف ليلة وليلة) ياسادة كتاب شعبي تمثلت فيه طوائف الشعب وطبقاته ، وتراءت من خلاله ميوله ونزعاته ، وتكلمت فيه أساليبه ولهجاته ، فهو كالشعب وكل شيء للشعب . قد لقي من جفوة الخاصة وترفُّع العلية أذى طويلا ، أغفله الادب فلم يتحدث عنه ، واحتقره الادباء فلم يبحثوا فيه ، ورآه (محمد بن اسحق المعروف بابن النديم) فقال إنه غث بارد ، لانه نظر اليه نظره الى الادب الارستقراطي الذي يصور ترف الخيال وجمال الصناعة . فلما حقق العصر الحديث تغلُّب الديمقراطية وسيادة الشعوب ، واستتبع ذلك عناية أصحاب المذهب الابداعي (الرومانتكيين) في الغرب بحياة السوقة والدهماء عنايتهم بحياة الملوك والنبلاء وهبَّ رواد الاستعمار وعشاق الآثار ينقبون عن (فولكلور[1]) الشرق اخذ أدباؤنا بحكم

---

(١) فولكلور (Folklore) كلمة انكليزية يراد بها في الادب الاوربي — مجموع التقاليد والاساطير والاشعار الشعبية لأمة من الامم .

ARCHIVE http://Archive.beta.Sakhrit.com

التقليد والبدوى — يعطفون على أدب السواد ، فدونوا اللغة العامية ، وجمعوا الأغاني الشعبية ، ونظروا بعض النظر في فن القصص ، وسمعوا في رجفة من الدهش — الى قول الاوروبيين : ان في أدبنا الموروث كنزاً دفيناً — من هذا النوع له في أدبهم أثر قوي وشأن نابه . ولكنهم لم يخلدوا بدياً الى هذا القول بثقة .. واستكثروا على هذا الكتاب الخرافي السوقي ان يذكر في الكتب ويوضع في المكاتب وينبه الناس الى فضله ، وبينا العرب بانتاجه حتى رأينا بعيوننا انه نقل منذ أوائل القرن الثامن عشر الى كل لغة .. وحل الموقع الاول من كل أدب ، وظفر بإعجاب النوابغ من كل أمة . حتى قال (فولتير) انه لم يزل لا يزاول فن القصص الا بعد ان قرأ الف ليلة وليلة اربع عشرة مرة ، وتمنى القصصي الفرنسي (استندال) ان يمحو الله من ذاكرته (الف ليلة وليلة) حتى يعيد قراءته فيستعيد لذته .

ثم قرأنا أن أقلام المستشرقين اخذت تتجادل منذ أوائل القرن التاسع عشر في اصله ، وتكشف عن مناحي جماله وفضله ، وان دوائر المعارف الكبرى سجلته في حقولها ، وخصته بالطويف الممتع من فصولها . وان الاستاذ (فكتورشوفان) أفرد له في كتابه (تاريخ المؤلفات العربيـة) جزءين سرد فيهما مخطوطاته ومطبوعاته وترجماته ، وجزءين آخرين لخص فيهما طائفة كبيرة من حكاياته ، وان الكتاب الروائيين قد استغلوه للسينما والمسرح فاستخرجوا للاول رواية (لص بغداد) وللثاني (قسمت) او (القضاء والقدر) ، وان رجال التربية والتعليم في فرنسا والمانيا وانكلترا — قد اقتبسوا منه أدباً للاطفال فاختصروه وصودوه ، ولقيتُ انا منذ عامين في القاهرة مستشرقاً اسبانياً وآخر اميركياً قد أرسلتُ الاول جامعته . والثاني جمعيته ، لينقبا في مدن الشرق عن مخطوطات (الف ليلة وليلة) .

حينئذ أخذت خاصتنا تقرؤه وتسمه ، ومطابعنا الراقية تصححه وتطبعه ، وأدباؤنا المترفعون يشيرون اليه في تاريخ الادب . ولكنهم الى اليوم لم يدرسوه دراسة علمية تكشف عن لبابه ، وتستقطر النطف العذاب من عبابه ، وهو على الرغم من جميع ما فيه ، قد سجل على توالي القرون أطوار اجتماعنا ، وصوّر بالألوان الزاهية مختلف أخلاقنا وطباعنا ، ونشر في الشرق والغرب أنوار حضارتنا وازدهار ثقافتنا وجمال تقاليدنا ، وأتم نقص التاريخ الذي تجاهل الشعب . والأدب الذي احتقر العامة . فكان منه للناقد الاجتماعي والمؤرخ الفيلسوف

والاديب الباحث والكاتب القصصي — منهل ثر الينابيع ، صافي المورد . وهو — فضلاً عن ذلك — كان للشعب العربي في زمن انحلاله ، وضياع استقلاله ، وصعوبة اتصاله — قبس يبعث الحرارة في النفوس الخامدة ، وذكرى تلوع القلوب أسىً على المجد الذاهب ، وصلة ثقافية تجمع المنازع المتفرقة على الوحدة .

يكاد يكون (الف ليلة وليلة) طعاً ثانياً على بغداد ، بل ربما كان أدلَّ عليها اليوم في نظر الشعوب الحديثة من شأنها الرفيع في الحضارة ، ومكانها البارز في التاريخ : ذلك لأن آثارها المادية قد ألح عليها طغيان الدهر وفيضان النهر حتى محواها . اما هي في هذا الكتاب فلا يزال سناها باهياً لم يخبُ ، وصداها داوياً لم ينقطع ، فهو لحضارة العربية في (بغداد) متحف زاخر بالاعاجيب ، دونه ما للحضارة الفرعونية في مصر من معابد ومقابر وكنوز ، لانه يسير في البلاد وهي ثابتة ، ويتحدث الى جميع الشعوب وهي صامتة ، حتى أصبح لفظ (بغداد) في جميع اللغات مرادفاً للعمران الزاهر ، والترف العجيب — واسم الرشيد رمزاً للعدل الشامل والزمن الخصيب . ذكر احد كتاب الانكليز فترة من الزمن الرخي فقال : كان ذلك في العصر الذهبي اذ كان يحكم الخليفة العادل هرون الرشيد .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ذلك بعض فضل الكتاب على (بغداد) . وقد ذكرت من قبل أنه لم يُؤلف على هذه الصورة فيها ، ولم يؤلفه احد من بنيها ، وانما جمع في مجالس القصص في القاهرة ، ودون على هذا الشكل في القاهرة ، وطبع اول طبعة كاملة في مطبعة الحكومة بالقاهرة . ثم كان حظ القاهرة من كتاب (الف ليلة وليلة) ان صوَّرها للناس مثابةً للاحتيال والشطارة والشموذة والجهل بينما يصور (بغداد) مهبطاً للفضل ، وموطناً للنبل ، ومعدناً للكرم ، وعشاً للحب ومظهراً للترف ، حتى كان من جرَّاء ذلك ان اهل (بغداد) لا يزالون يقولون (عياق مصر وحيال مصر) ونحن ما زلنا نقول في القاهرة : تبغدد فلان اذا أظهر البغددة . وهي كلمة مشتقة من (بغداد) تدل على السرف والترف والبطر والنبل !

وسبب اختلاف حظ البلدين من الكتاب ان القصاص المصري اذا تحدث عن مصر — وهو منها وفيها — تحدث عما يرى ، وعبر عما يسمع ، وقد علمنا في اي عهد من عهود الضعف والانحلال ظهر هذا الكتاب بمصر . اما اذا تكلم عن بغداد فانما يتأثر بعوامل اربعة : يتأثر بما وُضع من الاقاصيص الجميلة في بغداد — ويتأثر بما ملأ الآذان وشغل

الاذهان عن عظمة بغداد وأبهة الخلافة — ويتأثر بما ركب الله في طباع الناس من تقديس الماضي، وتعظيم البعيد — ويتأثر بجهله أحداث التاريخ وتطور الام، فيأبى وهو في القرن العاشر من الهجرة ان يعترف بموت (الرشيد)، ومصرع (بغداد) ونكبة المجد الأثيل .

اما بعد فاني أحاول الآن باسادتي ان أكشف عن حقيقة (الف ليلة وليلة) بمقدار ماتهيأت لي المراجع في (بغداد)، بعد ان توفرتُ على قراءته ودراسته في مختلف الطبعات، ووقفتُ على مانشرعنه من الابحاث في بعض اللغات . وما أريد بالطبع ان أدفع السأم في نفوسكم بذكر مالايحتمله المقام من التحليل المفصل، وانما أجتزيء بذكر مالا يسع الرجل المثقف جهله من امر هذا الكتاب .

وهنا يدركنا المساء كما يدرك شهرزاد الصباح، فنرجيء البقية الى الاسبوع المقبل اذا تفضلتم بالسماح .

احمد حسن الزيات

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الكلمات الايوبية

—(١)—

وأعني بها الكلمات التي تولدت في عهد الدولة الايوبية والدول التي خلفتها في مصر والشام : كنتُ — وانا أتصفح الجزء الاخير (الثامن) من نهاية الارب لمؤلفه النويري المصري — أعثر على كلمات جارية في لغة تخاطب المصريين في ذلك العهد · وهي كلمات (عامية) — أو ذكرها فنسميها (مولدة) — مما لا يعرفه فصحاء العرب ولم يدونه أرباب المعاجم · والذي جعلني أهتم بتلك الكلمات أنها مازالت الى اليوم شائعة على ألسنتنا وعائشة في لغة تخاطبنا : فهي إذن قد عاشت نحو ثمانية قرون · وما يدرينا لعلها كانت حية قبل ذلك التاريخ ايضاً ·

http://Archivebeta.Sakhrit.com

والبحث في كلمات اللغة من حيث نشوءها وتطورها ومرور الازمنة المختلفة عليها — هو فن اوضحى حديث من مناحي المباحث اللغوية التي يعنى بها علماء اللغات الراقية ويضعون فيها المصنفات النفيسة · ومازال هذا الفن — أو الابتكار في البحث اللغوي — مجهولاً لدينا معشر العرب ، بيد أن الانتباه اليه ، والفكرة فيه قد أخذت تنمو · وسيأتي زمن يكون فيه لكلمات لغتنا (ولا سيما غير القاموسية منها) تاريخ ومؤرخون ومصنفات · واخشى ان يسبقنا الى هذا الضرب من خدمة لغتنا العربية اولئك المستشرقون الفضلاء كما فعل المستشرق الكبير (دوزي) مذ جمع الكلمات التي أهملها أرباب المعاجم العربية وأودعها كتاباً ضخماً ذا جزئين ·

وهذه الكلمات التي سنسردها في مقالنا هذا من جملة الكلمات التي تولدت بل الأجدر ان نقول من جملة الكلمات التي كانت شائعة الاستعمال في عهد الايوبيين وخلفائهم كما كانت شائعة كذلك في الاقطار التي حكموها وخاصةً القطرين المصري والشامي ·

وكما دعونا الكلمات التي كانت شائعة في عهد الخلفاء العباسيين — (الكلمات العباسية) — يحسن ان نسمي الكلمات التي كانت شائعة في عهد الايوبيين الى زماننا هذا — (الكلمات الايوبية) — والكلمات التي تولدت في عهد اختلاط الافرنج الصليبيين والسوريين — (الكلمات الصليبية) وستأتي الاشارة في مقالنا هذا الى كلمة من تلك (الكلمات الصليبية) .

ولا نعلم ان كانت بعض تلك (الكلمات الايوبية) مما ورثه الايوبيون من العباسيين او لم يرثوه منهم بل تولد في زمنهم هم . لكننا نعلم يقيناً ان كثيراً من تلك الكلمات قد ورثه العهد التركي العثماني من العهود التي سبقته ثم انتشر في عهد سيطرة العثمانيين على مصر والشام . ومازال شائعاً بيننا الى هذه الايام .

***

فأول تلك الكلمات الايوبية كلمة (ديوان) على ان كلمة (ديوان) مما ورثه الايوبيين ممن قبلهم كما توهم لمن بعدهم اويقال ان كلمة (ديوان) هي حجر الزاوية في البنائين بناء (الكلمات المعربة) في الاسلام وبناء (الكلمات الادارية) في الاسلام . أليس أول من استعملها عمر بن الخطاب ؟ وذكر بعضهم ان معنى (الديوان) كان موجوداً قبل ان يعرّب لفظه : إذ انه (أي المعنى) وجد في زمن النبي صلى الله عليه وسلم . فقد روى (حذيفة) رضي الله عنه ان النبي صلى الله عليه وسلم قال : (اكتبوا لي من تلفظ بالاسلام من الناس . فكتبنا له الفاً وخمسمائة رجل) . وجاء رجل الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله اني اكتتبت في غزوة كذا وامرأتي حاجة . قال إرجع فاحجج مع امرأتك) . فيفهم من هذين الحديثين أن الاحصاء و(قيد النفوس) او (نفوس الغزاة خاصة) نشأ في عهده صلى الله عليه وسلم . أما تسمية ذلك بالديوان فكان في عهد عمر :

ذلك انه بعث بعثاً وعنده الهرمزان الفارسي فقال لعمر : هذا بعث قد أعطيت أهله الأموال فان تخلف رجل منهم وأخلّ بمكانه (اي ترك المكان او العمل الذي وكّله اليه أميره) فمن أين يعلم صاحبك (أي أميرك الذي وليته ذلك الجيش) فأثبت لهم ديواناً . فسأله عمر عن (الديوان) ففسره له فكلمة (ديوان) أم الكلمات الادارية الدخيلة .

وكان (الديوان) ديوانين: ديواناً بالشام : لغته الرومية ، وديواناً في العراق : لغته الفارسية . ثم تحولا الى اللغة العربية . ويحكى في سبب تحول ديوان الشام الى العربية أن

بعض كتاب الروم في الديوان الشامي أراد ماء لدواته فبال بالدواة · فبلغ الخليفة عبد الملك بن مروان خبره فأدبه وكان ذلك من جملة الاسباب في تحويل الديوان من الرومية الى العربية ·

ومن الكلمات الايوبية الادارية كلمة (المجلس) بمعناها الاداري المتعارف اليوم وكلمة (كتابة الانشاء) و (كتّاب الانشاء) و (كتابة الحساب) و (كتّاب الحساب) ونسميها اليوم المحاسبة و (كتابة التصرف) و (كتاب التصرف) وكانوا يريدون (بالتصرف) ما نريده اليوم بالاعمال الداخلية او الاعمال الادارية مما يقابل الاعمال المالية والعسكرية ·ومن كلمة (التصرف) هذه جاءت كلمة (المتصرف) و(المتصرفية) عند الاتراك العثمانيين · وكلمة (الخزانة) ويريدون بها مستودع الامتعة والثياب والتقادم والخلع وشاعت لدى الاتراك العثمانيين باسم (خزينة) و (خزنة) لكنهم يريدون بها مستودع النقود والاوراق المالية · وكلمة (جامكية) بمعنى الراتب والاجر · و(العوائد المقررة) وهي صلات وهدايا تخص بها الحكومة بعض ذوي المنزلة في الدين أو الشرف او العلم · وكلمات (الناظر) و (النائب) و (المباشر) · وفي غزة اليوم أسرة تسمى بالمباشر وهي من أصل مصري · ومازالت كلمة (مباشر) تطلق في محاكمنا الشرعية على الذي يجلب الخصوم او يبلغ اوراق المحكمة (الدعوتية) ويسمى (المحضر) ايضاً · وكلمات (الرتب) و (المناصب) و (أرباب المناصب) ويريدون بها ما نريده بها اليوم · وكذلك (التشريف) و (التشاريف) بمعنى الرتب الرسمية وهي شائعة في الدولة المصرية اليوم بمقابل كلمة (الرتب) الشائعة عندنا · وكلمة (المرسوم) و(المنشور الشريف) وجمعها (المناشير) وهو ما يتضمن الاوامر السلطانية الصادرة بالتعيينات الادارية او القضائية او العلمية وترادفها في الدولة العثمانية كلمة (فرمان) وهي كلمة فارسية · وكلمة (دستور) ولها معان عرفها العرب الاقدمون ثم شاعت في الدول الاسلامية الاعجمية بمعنى (الإذن) وبمعنى (الوزير) وبمعنى (الكتاب) يتضمن قوانين الدولة ونظمها وأوامرها · وكلمة (كشف) بمعنى تقرير اوبيان ينظمه الموظف ويفصل فيه أعمالاً قام بها اوحسابات أجراها · ومثل (الكشف) كلمة (عرض) يودعه رئيس الديوان تفصيلا لاستعراض الجند وقيود روانبهم · وكلمة (تحرير) بمعنى الكتابة و (ضبط) تقييد الشيء وكتابته و (جريدة) و (جرائد) للسجلات والدفاتر التي تقيد فيها المعاملات الحكومية · وغلبت اليوم على دفاتر

قيود المحكمة الشرعية • وكلمة (شطب) كانوا يريدون بها نقل [المعاملة] او [القيد] من دفتر الى دفتر • ولابد أنهم يمدون خطاً بالحبر على المعاملة الاولى إشارة الى إهمالها وعدم الاعتداد بها وبهذا المعنى «معنى إمرار الخط على السطر وإفساده» نستعملها نحن اليوم مذ نقول [اشطب] و [شطّب] وفي اللغة الفصحى [ارمج] و [رمّج] يقال رمج الكاتب ما كتبه إذا أفسد سطوره بعد كتابتها • وكلمة [جندية] بمعنى العسكرية والتجند و [أجناد الحلقة] الحلقة في اللغة العربية بمعنى السلاح وقد استعملها الايوبيون وخلفاؤهم بمعنى الجنود باسلحتهم يقامون في مواضع المخافة للحراسة والخفارة • ومثلها [المسلحة] و [المسالح] وهي مراكز الجنود باسلحتها تعدّ للغرض المذكور • ومازال يوجد مكانان في الطريق بين بيروت وطرابلس الشام على ساحل البحر أحدهما يسمى [ابوحلقة] على بعد كيلومترين اوثلاثة من طرابلس فيه عين ماء وكان في زمن الجراكسة المصرية مركز الجنود الخفراء — والمكان الآخر يسمى [المصيلحة] بياء التصغير محرف عن [مسيلحة] تصغير [مسلحة] اسم عقبة كؤود فيها بناء شبه قلعة صغيرة كانت تقيم فيها الجنود للخفارة وحفظ القوافل والمسافرين •

وكلمة [استدعاء] والاستدعاء في اللغة بمعنى الطلب ثم صار يطلق على كتاب الشكوى الذي يرفعه المستدعي الى الحاكم طالباً انصافه اوالنظر في مظلمته او تسوية بعض مشاكله مما هو من وظيفة ذلك الحاكم الذي قدم اليه الاستدعاء • فمعنى كلمة [الاستدعاء] في الاصطلاح موافق لمعناها في أصل اللغة العربية وهوالطلب • على ان كلمة [طلب] نفسها مازالت الى اليوم تستعمل في الحكومة المصرية بمعنى الاستدعاء أو نوع آخر من أوراق المعاملات الرسمية • فلاحاجة الى ان يقال ان كلمة [استدعاء] محرفة عن كلمة [استعداء] بتقديم العين على الدال • ولعمري ان هذه الكلمة [استعداء] أفصح وأدل على المعنى الاصطلاحي من أختها : ذلك ان معنى [استعدى] هو ان يتقدم المظلوم الى الحاكم ويستعديه على خصمه اي يطلب منه ان [يُعديه] ومعنى [يعديه] يزيل عدوانه عنه ومعنى [العدوان] الظلم والتعدي • فهمزة [أعداه] هي للازالة كالهمزة في [أشكاه] القاضي اذا أزال شكايته وأنصفه من خصمه • فالاستعداء في اللغة هو طلب إزالة العدوان • فاذا كُتب هذا الطلب في كتاب صح ان نسمي الكتاب [استعداء] فيكون الفرق بين [الاستعداء] و [الاستدعاء] ان [الاستدعاء] في اللغة يدل على مجرد الطلب • أما [الاستعداء] بتقديم العين فيدل على طلب خاص وهو إزالة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

العدوان عن المستعدي المظلوم . فالاستعداء اصطلاح حسن . ولكن الاصطلاح على [الاستعداء] أحسن منه . على اننا يمكننا مذ الآن ان نخصص كلمة [الاستعداء] بتقديم العين لكتب الشكاوى التي ترفع الى قضاة العدل . وتبقى كلمة [الاستدعاء] بتقديم الدال في كتب المصالح الاخرى التي ترفع الى سائر الحكام .

والمستودعات الاميرية كانت تسمى في عهد الدولة الايوبية [البيوت السلطانية] وتختلف اسماؤها باختلاف مايجعل فيها : فهي [الشراب خاناه] و[الفراش خاناه] و[السلاح خاناه] الخ وكأن كلمة [خاناه] بمعنى البيت كانت تلفظ في التركية القديمة بالف مدّ بعد النون . اما في التركية العثمانية فاختزلت الى [خانه] فيقال [جبخانه] و[طوبخانه] . وكان لكل بيت مباشر هو المسؤول عما فيه . قال في [نهاية الارب] مبيناً وظيفة مباشر [الفراش خاناه] : « ويعرض ما يسلم للفراشين عليهم ... ويضبط ما يتسلمه الصناع الذين يفصلون الخام الجديد وغيره من آلات [الفراش خاناه] من قماش بياض ومصبوغ وغزل وجلود ومشمعات الخ » .

ففي هذه العبارة عدة كلمات أيوبية : منها [الفراشون] وهم الذين يتولون أمر فرش قصور العظماء وغلبت اليوم في مصر على الذين يلتزمون تقديم آلات الضيافة من فرش وغيره في الولائم او المآتم . وكلمة [الخام] الظاهر انه أراد بها مايراد بها في بعض بلاد الشام اليوم وهو ضرب من الثياب البيض غير خالصة البياض ولذا تسمى في دمشق [البطانة السمراء] وفي القاموس [الخام الجلد الذي لم يدبغ والكرباس الذي لم يغسل وهو فارسي معرب] فاستعماله اليوم في الثياب السمراء موافق لمعنى [الكرباس] لأن الكرباس الثوب الأبيض من القطن اوالثوب الخشن . والخام من القطن ايضاً وهو خشن . وكذلك يطلق لفظ [الخام] اليوم في الفن أو الصناعة — على المواد الأولية قبل ان تحول الى مصنوع كالصوف والقطن قبل نسجها والجلد قبل صنعه والمواد المعدنية قبل صهرها الخ . وهذا الاستعمال موافق لمعنى الخام في اللغة كما قال القاموس غير أن القاموس خصه بالجلد . وأهل الصناعة والاقتصاد اليوم تخطوا به الى كل مادة تُصنع : جلداً أو غيره . وكلمة [قماش] نريد بها اليوم ما كانوا يريدونه في العهد الأيوبي أعني الثياب المختلفة التي تلبس أوتفرش . وهواستعمال عامي إذ للقماش في اللغة معنى غير هذا . وقول المؤلف [قماش بياض] يوافق استعمالنا اليوم من

إطلاق [البياض] على الثياب البيض الرقاق التي تفصل أقمصة وسراويلات ويسمى هذا الضرب من القماش في دمشق [مادام] وفي القديم كان يسمى الكرباس ويجمع على الكرابيس لكن الكرباس يكون فيه خشونة كما يفهم من كتب اللغة وكما يفهم من استعماله مذ يقولون [وكان فلان متقشفاً يلبس الكرابيس] .

وكلمة [مشمعات] ايضاً مما نستعمله اليوم ونريد به ثياباً تطلى بالشمع ويتقى بها المطر ويسمى المشمع الذي يلبس لاتقاء المطر في اللغة العربية [ممطراً] على وزان منبر . قال عمر ابن ابي ربيعة :

[فأسرج لي الدهماء واعجل بممطري ولا يعلمن خلق من الناس مذهبي]

وكلمة [جندرة] ورد ذكرها في نهاية الارب مع تفصيل الثياب ورفوها وحشوها فلعلهم يريدون بها ما ذكره علماء اللغة مذ قالوا جندر الثوب اذا أعاد وشيه بعد ذهابه قال الجوهري وأظنه معرب . ونريد بجندرة الثوب اليوم تموجاً خاصاً في وشي الثوب او في صبغه وتلوينه .

و [آلة الحمام] يريدون بها ما نريده اليوم مما يستصحبه المغتسلون في الحمامات من طشوت وطاسات .

وكلمة [طواشيه] مما استعملوه في العهد الايوبي ويستعمل اليوم في ذلك المعنى ايضاً وكانوا في العهد الأموي يدعونهم [خصيان] .

وكلمة [بخش] بضم الباء يريدون بها [الثقب] لكنها اليوم أصبحت عامية مبتذلة .

وكلمة [نفر] مراداً بها الشخص الواحد فيقولون كما نقول اليوم: اخذ القائد معه خمسين نفراً مثلاً اي خمسين نفساً . ولها معنى في اللغة غير هذا .

وكلمة [قلوب] ذكرها في نهاية الارب مع الأبازير والتوابل ويريدون بها لب الفستق واللوز والبندق وتسمى في بعض بلاد الشام [قلوبات] أما اهل دمشق فيسمونها [مكسّرات] .

وكلمة [الأقسما] يذكرونها مع الفقّاع [ضرب من الأشربة] والفواكه والحلويات ولعلهم يريدون [بالأقسما] ما ذكره الخفاجي في شفاء الغليل قال هو نقيع الزبيب وهو معرب [أبسما] . أما الاقسما في بعض بلاد الشام فيراد به نحو شراب التوت او الليمون محلّى بالسكر ومبرداً بقطع الثلج التي تبقى جامدة تقعقع تحت الاسنان . وقد أخذت كلمة [الأقسما] تموت رويداً رويداً وتخلفها كلمة [شربات] .

ويقولون [دسوت النحاس] الدست له عدة معانٍ في اللغة وليس منها معنى القدر الكبير كما هو الشائع على ألسنة العامة اليوم فهو إذن مولد يرادفه [الخلقين] والخلقين كلمة يونانية ·

وكانوا يقولون [الركائب] بتقديم الراء على الكاف ويريدون بها المغارف وهو لفظ شائع الى اليوم في مصر لا في الشام لكنهم [أي أهل مصر] اليوم يلفظونه على أصله فيقولون [كرائب] بتقديم الكاف جمع [كُرْنُبه] وهي المغرفة · قال في مستدرك التاج إنها كلمة مصرية · فأنت ترى ان المصريين الأقدمين كانوا يلفظونها محرفة مذ يقولون [ركائب] لا [كرائب] · وليس هذا بعجيب منهم: فان أبناءهم اليوم يقولون في [أرانب] جمع أرنب [أنارب] بتقديم النون · ومازلت أذكر السيد احمد بك الحسيني رحمه الله مذ قال لي أما تحب لحم الانارب؟ فلم أفهم ذلك حتى فسره لي ·

وكانوا يستعملون كلمة [خصم] اي التنزيل في الحساب كما نستعملها اليوم وكذا كلمة [وصول] · ويقول المصريون اليوم [ابصال] اما في الشام فمازالوا يقولون [وصول] و[وصل] · وقال في شفاء الغليل انها مولدة عامية · ولقد تظرّف بعض المولدين مذ قال :

[أنفقت عمري في هواك وليتني أعطى وصولاً بالذي أنفقته]

وكذلك يقولون [غلّق ماعليه من أجرة الضمان] أي أدى بقيته كما تقول اليوم وهو تعبير عامي · أما قولهم [عبّر الشيء] اي وزنه ليعلم مقدار ثقله بالنسبة الى موزون آخر — فهو فصيح لامولد · ومثله فعل [استعبر الشيء] وهو المستعمل في بلادنا اليوم لمعرفة الموزون او المكيل · وكذلك كلمة [إردب] في الكيل المخصوص مازالت مستعملة الى اليوم · ومثلها [فدان] في المساحة ·

وسألني بعض كبار المهندسين عن كلمة تقوم مقام (Precis) الافرنسية مذ يقولون « مسح المهندس الارض الفلانية فبلغت خمسين متراً بالضبط » فان الكلمة الافرنسية لايجوز لنا استعمالها لعجمتها وكلمة [بالضبط] لابتذالها · فقلت يمكنك ان تقول [بالتمام] أو [تماماً] · ثم اتفق ان رأيت صاحب [نهاية الأرب] يقول (ص٢٤٤) في صدد معرفة عمر الغلام الذي تؤخذ عنه الجزية « يُدار خيط على عنق الصبي مرتين تحريراً ثم يوضع طرف الخيط بين أسنانه وتُدخل أنشوطة في رأسه فان دخلت دل ذلك على بلوغه وإلا فلا » فقوله [تحريراً] قد أراد به في غالب الظن مانريده نحن اليوم في قولنا [بالضبط] وما يقوله

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الافرنسيون بقولهم (Précis) و (Precisement) فما علينا اليوم الا ان نحيي هذه الكلمة فنقول [فلان عمره ستون سنة تحريراً] و[زرت فلاناً في الساعة الثامنة والنصف تحريراً] و«فلان بلغت قصبات أرضه التي اشتراها الف قصبة تحريراً» الى غير ذلك ·

ذكرنا كلمة [قصبات] ونحن على يقين ان معظم أهل الأقطار العربية لا يعرفون ما المراد منها لكننا نحن استعملناها في المعنى الذي يستعملها فيه الدماشقة اليوم والمصريون قديماً: فقد ذكر صاحب [نهاية الأرب] الفدّان وحدد مقداره فقال: «هو اربعمائة قصبة بالقصبة الحاكية والقصبة الحاكية ستة أذرع وثلثا ذراع بذراع القماش» · ولا يخفى ان ذراع القماش هو الذراع المستعمل اليوم في بلاد الشام ويسمى ايضاً الذراع الاسلامبولي · وفي دمشق مقدار من المساحة الارضية يعبرون عنه بالقصبة وهو ثمانية واربعون ونصف [مربع] بالذراع المذكور اي الذراع الاسلامبولي أو ذراع القماش فتكون النتيجة ان قصبة المساحة التي كان يسميها المصريون في العهد الايوبي بل والعهد الفاطمي [القصبة الحاكية] نسبة الى [الحاكم بامر الله الفاطمي] — هذه القصبة هي المستعملة اليوم تقريباً في دمشق فيقولون [قصبة] ولكن لا ينعتونها بالحاكية كما كان ينعتها المصريون الايوبيون · وقال القلقشندي في [صبح الأعشى] القصبة الحاكية طولها ستة أذرع بالهاشمي وخمسة أذرع بالنجاري وثمانية أذرع بذراع اليد اه ·

ورأيت في [نهاية الارب] كلمة عربت منذ ثمانية قرون ودخلت في لغة أجدادنا السوريين من لغة الافرنج الصليبيين وقد نبه اليها المؤلف نفسه فقال «وفي بعض الأعمال الشامية نواحٍ مفصولة ومضمنة على أربابها بشيء معلوم يؤخذ منهم عند إدراك المغل» ثم قال مفسراً كلمة [مفصولة] ما نصه: [وكلمة «الفصل» بالشام كله كلمة افرنجية واستمر استعمالها في البلاد الساحلية التي ارتجعت من أيدي الافرنج جرياً على عادتهم اه] · وكأنه أراد بقوله [جرياً على عادتهم] ان اهل الشام في زمن الحروب الصليبية كانوا يعرّبون كلمات الافرنج ويستمرون على استعمالها · وهل المصريون ياترى ما كانوا يفعلون ذلك ؟ وكلمة [فصل ومفصولة] استعملهما المؤلف النويري — كما رأى القارئ — في صدد استئجار الارض الزراعية المُغلّة · فناحية من نواحي الشام تكون مفصولة أي ذات فصل بان تكون إقطاعاً بتصرف أمير من الامراء الإقطاعيين فيعتمد هذا الامير على بعض اتباعه فيؤجره الناحية لقاء مبلغ

من المال — هذه الارض الاقطاعية المؤجرة على هذه الصورة كان يقول عنها أسلافنا أهل الشام انها أرض [مفصولة] وايجارها [فصل] . وقال المؤلف النويري ان الشاميين أخذوا هذه الكلمة من لغة الافرنج فكيف أخذوها؟ قال الاستاذ احمد الزين مصحح كتاب [نهاية الارب] معلقاً على عبارة المؤلف ما نصه : « لعل أصل هذه الكلمة في اللغة الافرنسية Vassal [فـاسـال] ومعناه التابع الذي أعطاه متبوعه إقطاعاً نظير واجبات يؤديها كما في معجمات هذه اللغة فكأن اهل الشام اشتقوا من [فسال] لفظ [الفسل] وأرادوا به المعنى المصدري اي التبعية ثم حرفته ألسنتهم الى كلمة [الفـصل] كما هنا حسب نطقهم العربي واشتقوا منه لفظ [مفصولة] » اه كلامه .

فأجدادنا أهل الشام لما لم يجدوا في اللغة العربية كلمة خاصة تدل على استئجار تابع الامير من متبوعه أرضه الاقطاعية وسمعوا الصليبيين يقولون معبرين عن هذا المعنى بكلمة (Vassal) استجازوا تعريبها وقالوا [الفصل] و [الارض المفصولة] حتى استعملها النويري في كتابه . فيصح لنا نحن اليوم ان نسميها [كلمة صليبية] ونبحث عن أخواتها ونضمها اليها بعنوان [الكلمات الصليبية] وقد يعثر المتتبع اليقظ على كثير من هذه الكلمات .

ونختم هذا البحث بكلمتين إداريتين كان المصريون في عهد الدولة الايوبية يستعملونهما : احداهما كلمة [الترصيع] يريدون بها ما نريده بكلمة [التنظيم] مذ نقول : نظم العامل العمل اونظم جدولاً بالعمل امامه فكانوا يقولون رصّع العمل وترصيع العمل ولا بأس باستعمال هذه الكلمة في مثل هذا المقام او مقام آخر يشبهه . اما الكلمة الاخرى فهي [مَعْذوق] مذ يقولون مثلاً « وامر البيوت السلطانية معذوق بناظر خاص » ويريدون [بمعذوق] ما نريده اليوم بكلمة [منوط] مذ نقول هذا الأمر منوط بفلان اي معلق به ومرتبط به واليه مرجعه . ولكلمة [معذوق] معنى في اللغة لا تمكن إرادته هنا الأعلى استكراه . فليس لنا في استعمال [معذوق] حاجة مادامت لدينا كلمة [منوط] بشرط ان لا نشدد واوها ونقول [منوّط] كما يفعل بعضهم .

« المغربي »

مذهب الجاحظ في الادب(١)

—(())—

أحطنا حتى اليوم بثلاث نواحٍ من نواحي الجاحظ فقد تكشف لنا علمه ودينه ونقده، فكان في علمه يبني على أصول معينة وصولاً الى الحقائق وكان في دينه يعمل عقله في التفسير والتأويل دون ان يكون لأحد سلطان عليه، وكان في نقده على نحو ما رأينا في علمه يتوخى الحقائق معنياً بالفن الاهتمام كله، فاذا عرفنا هذا فهل علينا من حرج ان نعرف طائفةً من مذاهبه في الأدب كما عرفنا طائفةً من مذاهبه في العلم والدين والنقد، وآراء الجاحظ في الأدب مشتتة في أثناء كتبه فلا نجد له مباحث مطردة في هذا الباب يأخذ بعضها برقاب بعض فكأنه يلهو بمجامع المعاني لهواً وهذا اللهو من خصائص عبقريته .—

وعلى هذا النحو اننا لا نطمع في استقصاء آرائه الادبية وإنما نتوخى معرفة اليسير منها لعلنا نصور الجاحظ في صورة الأديب كما تصورناه في صورة العالم أو في صورة الفيلسوف أو في صورة الناقد .—

قبل أن أتفرغ لبيان أفكاره الأدبية لا أرى لي مندوحة عن الاشارة الى مذهبه في الأدب، فالجاحظ من أصحاب الأدب المجرد، انكم تعلمون ان الجاحظ عاش في عصر استفاضت فيه الحرية في كثير من الامور، من جملة هذه الامور تسمية الأشياء باسمائها دون اللجوء الى الكنايات، فاذا تصفحنا بعض الشعر في ذلك العصر ظهرت لنا ألفاظ عارية تصور الطبيعة في حقائق صورها دون شيء من التعفف، والجاحظ متصل بعصره الاتصال كله على نحو ما تبين لكم ذلك فلم ينسلخ من أثر من آثار هذا العصر فاذا وجد ان الأدب

(١) سلسلة محاضرات الاستاذ السيد شفيق جبري احد اعضاء المجمع العلمي العربي التي شرع في المحاضرة بها في كلية الاداب في دمشق سنة ١٩٣١ .

المجرد مذهب من المذاهب المستفيضة أخذ به ولم يتورع فهو صورة عصره في كثير من الامور فمن قوله في هذا المعنى[١] :

« وبعض الناس اذا انتهى الى ذكر ... ارتدع وأظهر التعزز واستعمل باب التورع وا كثر من تجده كذلك فانما هو رجل ليس معه من العفاف والكرم والنبل والوقار الابقدر هذا الشكل من التصنع ولم يكشف قط صاحب رياء ونفاق الا عن لؤم مستعمل[٢] ونذالة متمكنة الى آخر ما ذكره ثم أيد مذهبه هذا بطائفة من كلام النبي صلى الله عليه وسلم وكلام بعض الخلفاء الراشدين والسلف الطيب .—

ففي كلام الجاحظ ما يدل على ان هذا الشكل من الادب لم يشرع الشيوع كله فقد كانت طائفة من الناس يرتدعون ويظهرون التعزز ويستعملون باب التورع الا ان الجاحظ كان يرى ان هذه الأخلاق انما هي من ضرب التصنع وكيف كان الامر فالذي يهمنا انما هو المذهب نفسه ولهذا المذهب رجال ظهروا في فرنسة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر منهم (Henri Beyle) في مقدمتهم (بالزاك Balzac) و (فلوبير Flaubert) ثم (زولا) وغيرهم فيكاد يكون (بالزاك) أستاذ الأدب المجرد أو الأدب الواقع على حسب المصطلح فقد أحيا في رواياته جماعات تصورها على نحو جماعات اللحم والدم .—

لمح (بالزاك) في مقدمة رواية من رواياته الى غرضه فالغاية التي يرمي اليها انما هي كتابة تاريخ الرجل الطبيعي ، فأنتم تدركون من هذه الكلمة النتائج التي تؤدي اليها كتابة التاريخ الطبيعي للبشر ، شأن صاحب هذا المذهب انما هو وصف القبح والجمال ووصف الخير والشر على وجه واحد فلا قبح ولا جمال ولا خير ولا شر في نظر أهل هذا الأدب وانما هي مظاهر مختلفة يظهرها الرجل فهم يشبهون الانسان بحيوان أو بنبات .—

ليست غايتنا التبسط في الكلام على أهل الأدب المجرد وانما أردنا ان نقابل بينهم وبين الجاحظ فالجاحظ يختلف عنهم من حيث انه لم يتوسع في هذا المذهب فهو لم يضع روايات يرمي فيها الى تصوير القبح والجمال أو الخير والشر وانما لجأ الى مفردات قد لجأ الى أشباهها نظراً الى التحامها بموضوعاتهم فهو يشبههم في قليل من المواطن فقد نجد من كلامه ما هو مجرد من الأدب نسبة الى عصرنا وقد يكون هذا الكلام مألوفاً في عصره الا أنه كيف يكون

(١) الحيوان — الجزء الثالث ص١٢ . (٢) لعله : عن لؤم مستفحل .

الامر فلا نستطيع في هذه الايام ان نستعمل أضراب هذا الكلام لأن عصرنا لم يتهيأ لهذا النوع من الأدب ، اما كلام الجاحظ الذي اشرت اليه فانه يتجلى لنا في بحثنا عن لغته . —

وقد جرّته هذه الحرية في الأدب الى حرية مثلها في اللغة فاسمعوا ماقاله في بعض كلامه على الكلاب[1] :

« فأما الذي شهدت أنا من ابي اسحاق بن سيار النظّام فانا خرجنا ليلةً في بعض طرقات الأُبلّة وتقدمته شيئاً واعترض عليه كلب من شكل كلاب الرعاء وكره ان يعدوَ فيغريَه ويضربه وأنف ايضاً من ذلك وكان انفاً شديد الشكيمة اباءً للعضيمة وكره ان يجلس مخافة ان يشر عليه ببوله أو لعله أن يعضه فيهرتَ ثوبه وألح عليه فلم ينله بسوء فلما جزنا حدّه وتخلصنا منه قال ابراهيم في كلام له كثير يعدد خصاله المذمومة فكان آخر كلامه أن قال : ان كنت سبع فاذهب مع السباع وعليك بالبراري والغياض وان كنت بهيمة فاسكت عنا سكوت البهائم ، فلما بلغ الى قوله البهائم قال :

ولا تنكر قولي وحكايتي عنه بقول ملحون من قولي : ان كنت سبع ولم أقل ان كنت سبعاً وانا أقول : ان الإعراب يفسد نوادر المولدين كما ان اللحن يفسد كلام الأعراب لأن سامع ذلك الكلام انما أعجبته تلك الصورة وذلك المخرج وتلك اللغة وتلك العادة فاذا دخلت على هذا الامر الذي انما أضحك بسخفه وبعض كلام العجمية التي فيها حروف الإعراب والتخفيف والتثقيل وحولته الى صورة ألفاظ الأعراب الفصحاء وأهل المروءة والنجابة انقلب المعنى مع انقلاب نظمه وتبدلت صورته . — »

فلم يأنف الجاحظ بعد أن بسط مذهبه هذا من لحن أو من كلام غير معرب أو من لفظ معدول عن جهته حتى قال في كتاب البخلاء[2] :

« وان وجدتم في هذا الكتاب لحناً أو كلاماً غير معرب ولفظاً معدولاً عن جهته فاعلموا انا انما تركنا ذلك لأن الإعراب يبغض هذا الباب ويخرجه من حده الا أن أحكي كلاماً من كلام متعاقلي البخلاء واشحاء العلماء كسهل بن هارون وأشباهه . — »

ولم يقتصر على استعمال اللحن والكلام غير المعرب واللفظ المعدول عن جهته وانما أوصى

(١) الحيوان — الجزء الاول ص ١٣٦ .

(٢) البخلاء — ص ٣٣ .

بهذا المذهب فقال [١] :

« ومتى سمعت حفظك الله بنادرة من كلام الأعراب فاياك وان تحكيها الا مع إعرابها ومخارج ألفاظها فانك ان غيرتها بأن تلحن في إعرابها واخرجتها مخرج كلام المولدين والبلديين خرجت من تلك الحكاية وعليك فضل كبير . وكذلك اذا سمعت بنادرة من نوادر العوام ومُلحة من مُلَح الحشوة والطغام فاياك وان تستعمل فيها الإعراب أو أن تتخير لها لفظاً حسناً أو تجعل لها من فيك مخرجاً سرياً فان ذلك يفسد الامتاع بها ويخرجها من صورتها ومن الذي أريدت له ويذهب استطابتهم إياها واستملاحهم لها . — »

فاذا عرفنا ميله الى الحرية في التصوير والى الحرية في اللغة لزمنا ان نعرف مذاهبه في هذا التصوير وفي هذه اللغة ، ما هي الأصول التي يبني عليها الفن . —

لم يمتن الجاحظ بشيء في أبواب الفن اعتناءه بالمناسبة بين الألفاظ والمعاني فان قاعدة : لكل مقام مقال تكاد تكون أغلب قواعده ، فما أكثر ذكره لها في كلامه ، وما أكثر تنبيهه على استعمالها ولا عجب في ذلك ، فاذا رأيتم غداً كيف يناسب بين ألفاظه ومعانيه و كيف تكون ألفاظه على أقدار هذه المعاني عرفتم السبب الذي من أجله يحرص هذا الحرص على أن يكون المقال مطابقاً للمقام ، فقد نبه على هذه القاعدة في مواطن كثيرة من كلامه لا أرى بي حاجة الى ذكرها كلها وانما اجتزيء بذكر بعضها فمن قوله في هذا المعنى [٢] :

« ولكل ضرب من الحديث ضرب من اللفظ ولكل نوع من المعاني نوع من الاسماء فالسخيف للسخيف والخفيف للخفيف والجزل للجزل والافصاح في موضع الافصاح والكناية في موضع الكناية والاسترسال في موضع الاسترسال وان كان موضع الحديث على انه مضحك وملهي وداخل في باب المزاح والطيب فاستعملت فيه الاعراب انقلب عن جهته وان كان في لفظه سخف وابدلت السخافة بالجزالة صار الحديث الذي وضع على ان يسر النفوس يكربها ويأخذ باكظامها . — »

أو قوله [٣] :

(١) البيان والتبيين — الجزء الاول ص ٨١ .
(٢) الحيوان — الجزء الثالث ص ١٢ .
(٣) « « « ص ١١٤ .

« وقبيح بالمتكلم ان يفتقر الى ألفاظ المتكلمين في خطبة أو رسالة أو في مخاطبة العوام والجار أو في مخاطبة أهله وعبده وأمته أو في حديثه اذا حدث اوخبره اذا أخبر ، وكذلك من الخطأ ان يجلب الفاظ الأعراب والفاظ العوام وهو في صناعة الكلام داخل ولكل مقام مقال ولكل صناعة شكل .— »

أو قوله (١) :

« ووجدنا الناس اذا خطبوا في صلح بين العشائر أطالوا واذا أنشدوا الشعر بين السماطين في مديح الملوك أطالوا وللإطالة موضع وليس ذلك بخطل وللإقلال موضع وليس ذلك من عجز ... ورأينا الله تبارك وتعالى اذا خاطب العرب والأعراب أخرج الكلام مخرج الإشارة والوحي والحذف واذا خاطب بني اسرائيل أو حكى عنهم جعله مبسوطاً وزاد في الكلام .— »

ومثل الاشارة الى قاعدة : لكل مقام مقال كثير في كلام الجاحظ ولكن كيف يريد الجاحظ ان يكون هذا المقال ، ما هي قواعد الانشاء في نظره ، أيريد ان يرسل الكاتب كلامه على سجيته دون شيء من التنقيح أم يريد ان ينقح هذا الكلام .—

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

اهتم الجاحظ بالتنقيح كل الاهتمام فهو يعلم مقدار فتنة الكاتب بكلامه فلم يجد بداً من تنبيهه على التهذيب فقال (٢) :

« وينبغي لمن كتب كتاباً ان لا يكتبه الا على الناس كلهم له أعداء وكلهم عالم بالامور متفرغ له ثم لا يرضى بذلك حتى يدع كتابه غُفلاً ولا يرضى بالرأي الفطير فان لابتداء الكتاب فتنة وعجباً فاذا سكنت الطبيعة وهدأت الحركة وتراجعت الاخلاط وعادت النفس وافرة أعاد النظر فيه فتوقف عند فصوله توقف من يكون وزنُ طبعه في السلامة أنقص من وزن خوفه من العيب ويتفهم معنى قول الشاعر :

ان الحديث تغر الناس خلوته   حتى يلج بهم عيٌ واكثار

ويقف عند قولهم في المثل كل مجرٍ في الخلاء يسَرّ فيخاف ان يعتريه ما اعترى من أجرى فرسه وحده أو خلا بعلمه عند فقد خصومه واهل المنزلة من اهل صناعته ليعلم ان صاحب القلم يعتريه ما يعتري المؤدب عند ضربه وعقابه فما أكثر من يعزم على خمسة أسواط

(١) الحيوان — الجزء الاول ص٤٦ . (٢) الحيوان — الجزء الاول ص٤٤ .

فيضرب مائة لانه ابتدأ الضرب وهوساكن الطباع فأراه السكون ان الصواب في الاقلال فلما ضرب تحرك دمه فأشاع فيه الحرارة فزاد في غضبه فأراه الغضب ان الرأي في الإكثار وكذلك صاحب القلم فما أكثر من يبتدئ الكتاب وهو يريد مقدار سطرين فيكتب عشرة والحفظ مع الإقلال أمكن وهو مع الإكثار أبعد . (واعلم) ان العاقل ان لم يكن بالمتتبع فكثيراً مايعتريه من ولده ان يحسن في عينه منه المقبح في عين غيره فليعلم ان لفظه أقرب نسباً منه من ابنه وحركته امس به رحماً من ولده لان حركته شيء احدثه من نفسه وبدائه من عين جوهره فصلت ومن نفسه كانت وانما الولد كالمخطة يتمخطها والنخامة يقذفها ولاسواء اخراجك من جزئك شيئاً لم يكن منك واظهارك حركة لم تكن حتى كانت منك ولذلك تجد فتنة الرجل بشعره وفتنته بكلامه و كتبه فوق فتنته بجميع نعمته وليس الكتاب المشيء أحوج منه الى إفهام معانيه حتى لايحتاج السامع لما فيه من الروية ويحتاج من اللفظ الى مقدار يرتفع به عن الفاظ السفلة والحشوة ويحطه من غريب الاعراب ووحشي الكلام . — »

وقال في مقام آخر[1] :

وليس في الارض خصمان يتنازعان الى حاكم الا كل واحد منهما يدعي عدم الانصاف والظلم على صاحبه وليس في الارض انسان الا وهو يطرب من صوت نفسه ويعتريه الغلط في شعره وفي ولده الا ان الناس في ذلك على طبقات من الغلط فمنهم الغرق المغمور ومنهم من قد نال من الصواب ونال من الخطإ ومنهم من يكون خطؤه مستوراً لكثرة صوابه فما أحسن حاله مالم يمتحن بالكشف ولذلك احتاج العاقل في امتحان كتبه وشعره من التحفظ والتوقي ومن إعادة النظر والتهمة الى أضعاف مايحتاج اليه في سائر ذلك . — »

ولكنه على شدة اهتمامه بالتنقيح والتهذيب لايريد المبالغة في هذا الامر لانه يعلم ان المبالغة قد تفضي بالكاتب في خاتمة الامر الى شيء من التنطع والتنطس فلذلك قال[2] :

« وليس له ان يهذبه جداً وينقحه ويصفيه ويروقه حتى لاينطق الا بلب اللب وباللفظ الذي قد حذف فضوله وتعرقه وأسقط زوائده حتى عاد خالصاً لا شوب فيه .فانه ان فعل

---

(١) الحيوان — الجزء الثاني ص٣٧ .

(٢) 〃 〃 الاول ص ٤٥ .

ذلك لم يفهم عنه الا بان يجددلهم أفهاماً مراراً وتكراراً لان الناس كلهم قد تعودوا المبسوط من الكلام وصارت أفهامهم لا تزيد على عاداتهم الا بان يعكس عليها ويؤخذ بها الا ترى ان كتاب المنطق الذي قد وسم بهذا الاسم لو قرأته على جميع خطباء الامصار وبلغاء الاعراب لما فهموا أكثره وفي كلام إقليدس كلام يدور وهو عربي وقد صفي لو سمعه بعض الخطباء لما فهمه ولا يمكن ان يفهمه من يريد تعليمه لانه يحتاج الى ان يكون قد عرف جهة الامر وتعود اللفظ المنطقي الذي استخرج من جميع الكلام (قال معاوية بن أبي سفيان) رضي الله تعالى عنهما لصحار العبدي : ما الايجاز ؟ قال : ان تجيب فلا تبطئ ، وتقول فلا تخطئ ، قال معاوية : أوكذلك تقول ، قال صحار : أقلني يا امير المؤمنين ، لا تخطئ ولا تبطئ ، فلو ان سائلاً سألك عن الايجاز فقلت لا تخطئ ولا تبطئ وبحضرتك خالد بن صفوان لما عرف بالبديهة وعند اول وهلة ان قولك لا تخطئ متضمن بالقول وقولك لا تبطئ متضمن بالجواب وهذا حديث كما ترى آثروه ورضوه ولو ان قائلاً قال لبعضنا : ما الايجاز ، لظننت انه يقول الاختصار ، والايجاز ليس يعني به قلة عدد الحروف واللفظ وقد يكون الباب من الكلام من أتى عليه فيما يسع بطن طومار فقد أوجز وكذلك الإطالة . وانما ينبغي له ان يحذف بقدر ما لا يكون سبباً لإغلاقه ولا لترداده وهو يكتفي من الإفهام بشطره فما فضل عن المقدار فهو الخطل .— »

واذا كان الجاحظ يرمي الى التهذيب والتنقيح فمن الطبيعي ان يجعل للألفاظ صفات وخصائص وأن يحمل الكاتب على توخي هذه الصفات وهذه الخصائص ، ما هي طبائع الالفاظ التي يميل اليها الجاحظ ، قال في هذا المعنى[1] :

« وأحسن الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره ومعناه في ظاهر لفظه و كان الله عز وجل قد ألبسه من الجلالة وغشاه من نور الحكمة على حسب نية صاحبه وتقوى قائله فاذا كان المعنى شريفاً واللفظ بليغاً و كان صحيح الطبع بعيداً عن الاستكراه ومنزهاً عن الاختلال مصوناً عن التكلف صنع في القلب صنيع الغيث في التربة الكريمة ومتى حصلت الكلمة على هذه الشريطة ونفذت من قائلها على هذه الصفة أصحبها الله من التوفيق ومنحها من التأييد ما لا يمتنع من تعظيمها به صدور الجبابرة ولا يذهل عن فهمها عقول الجهلة ، وقد قال عامر بن

(١) البيان والتبيين — الجزء الاول ص ٤٧ .

عبد القيس : الكلمة اذا خرجت من القلب وقعت في القلب واذا خرجت من اللسان لم تجاوز الآذان . — »

ومن قوله ايضاً [1] :

« ومتى شاكل أبقاك الله ذلك اللفظ معناه وأعرب عن فحواه وكان لتلك الحال وفقاً ولذلك القدر لفقاً وخرج من سماجة الاستكراه وسلم من فساد التكلف ، كان قميناً بحسن الموقع وبانتفاع المستمع وأجدر ان يمنع جانبه من تناول الطاعنين ويحمي عرضه من اعتراض العيابين ولا تزال القلوب به معمورة والصدور مأهولة ومتى كان اللفظ ايضاً كريماً في نفسه متخيراً في جنسه وكان سليماً من الفضول بريئاً من التعقيد حبب الى النفوس واتصل بالأذهان والتحم بالعقول وهشت اليه الأسماع وارتاحت له القلوب وخف على ألسن الرواة وشاع في الآفاق ذكره وعظم في الناس خطره وصار ذلك مادة للعالم الرئيس ورياضة للمتعلم الريض . فان أراد صاحب الكلام صلاح شأن العامة ومصلحة حال الخاصة وكان ممن يعم ولا يخص وينصح ولا يغش وكان مشغوفاً بأهل الجماعة شنفاً لأهل الاختلاف والفرقة جمعت له الحظوظ من أقطارها وسيقت اليه القلوب بأزمتها وجمعت النفوس المختلفة الأهواء على محبته وجبلت على تصويب إرادته ومن أعاره الله من معرفته نصيباً وأفرغ عليه من محبته ذنوباً حنت اليه المعاني وسلس له نظام اللفظ وكان قد أغنى المستمع من كد التكلف وأراح قارئ الكتاب من علاج التفهم ولم أجد في خطب السلف الطيب والأعراب الأقحاح ألفاظاً مسخوطة ولا معاني مدخولة ولا طبعاً ردياً ولا قولاً مستكرهاً واكثر ما نجد ذلك في خطب المولدين البلديين المتكلفين ومن أهل الصنعة المتأدبين وسواء كان ذلك منهم على جهة الارتجال والاقتضاب أو كان من نتائج التخير والتفكر . ومن شعراء العرب من كان يدع القصيدة تمكث عنده حولاً كريتاً وزمناً طويلا يردد فيها نظره ويقلب فيها رأيه اتهاماً لعقله وتتبعاً على نفسه فيجعل عقله ذماماً على رأيه ورأيه عياراً على شعره إشفاقاً على أدبه وإحرازاً لما خوله الله من نعمته . — »

فأكبر همه انتخاب اللفظ النبيه الشريف واجتناب اللفظ الهجين الرديء .

وقبل ان يشرع الكاتب في الكتابة يلزمه ان يتصور المعنى ثم يتصور اللفظ على قدر

(١) البيان والتبيين — الجزء الثاني ص ٣ .

هذا المعنى [١] .

« وشر البلغاء من هيأ رسم المعنى قبل أن يهيء المعنى عشقاً لذلك اللفظ وشغفاً بذلك الاسم حتى صار يجر اليه المعنى جراً ويلزقه به الزاقاً حتى كأن الله تعالى لم يخلق لذلك المعنى اسماً غيره ومنعه الافصاح عنه الا به ٠— »

هذه بوجه التقريب القواعد التي رسمها الجاحظ في صناعة الكلام وإذا أجملناها وجدنا أنها تتعلق بالمناسبة بين الألفاظ والمعاني وبتنقيح الالفاظ دون شيء من الغلو في هذا التنقيح وبما يؤدي اليه التنقيح من انتخاب الالفاظ وتخيرها فهي من هذا الوجه تشبه في بعض الأحوال القواعد التي يضعها أدباء الافرنجة فاذا قابلنا مثلاً بين ماقاله الجاحظ وبين ماقاله الشاعر الفرنسي «بوالو» في فنه الشعري وجدنا القولين متشابهين في كثير من الوجوه ٠ فاذا تم للأديب هذا كله واجتمعت له أسبابه فليعمل بعد هذا بما قاله الجاحظ له [٢] :

« وليس ينبغي لكتب الآداب والرياضات ان يحمل أصحابها على الجد الصرف وعلى العقل المحض وعلى الحق المر وعلى المعاني الصعبة التي تستكد النفوس وتستفرغ المجهود وللصبر غاية وللاحتمال نهاية ٠— »

فما ينبغي للأدب في نظر الجاحظ ان يكون متعبة للعقل وانما الأدب في رأيه ضرب من الرياضة وعلى هذه الصورة يشبه مذهب الجاحظ في قدر الأدب مذهب أكابر الادباء في فرنسة وفي جملتهم الاستاذ «لانسون» Lanson الذي يريد ان يكون الادب : رياضة وذوقاً ولذة [٣] ٠—

في ٥ آذار سنة ١٩٣٢

شفيق جبري

---

(١) رسائل الجاحظ على هامش الكامل — الجزء الاول ص ٢٨ ٠

(٢) « « « « ص ١٥٥ ٠

(٣) راجع كتابي : المتنبي — ص ٤ ٠

قصيدة الفراسة

هذه أرجوزة تعد ٢٣٣ بيتاً تضمنت ذكر فضائل الاجناس وماخص كل جنس من جميل الطبع وقبيح الخلق وأثر كل بلدة بأهله — على سبيل الاختصار وهي من النوادر العزيزة الوجود اذ لم أرها في غير مسودة كتاب كنوز الذهب في تاريخ حلب لاحمد بن ابراهيم موفق الدين أبي ذر ابن العجمي المتوفى سنة ٨٨٤ وقد كتب هذه القصيدة بخط يده وعنه نسختها وكان المرحوم العلامة الشيخ طاهر الجزائري رآها عندي في احدى زياراته منزلي وطلب مني أن أسمح له بنقلها فاعتذرت له ولم أجب طلبه حرصاً عليها وأخبرني انه لم يرها مدة حياته سوى مرتين هذه المرة احداهما مع كثرة اطلاعه وولعه بالبحث والتنقيب عن الكتب المخطوطة النادرة .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

والذي يغلب على الظن استدلالاً من أسلوبها واستنباطاً من تسميتها البلدان والاقاليم وأجناس الناس بأسمائها المذكورة فيها — أنها مما نظم في القرن الرابع او الخامس .

وليس الغرض من نشرها بيان نعوت البلدان والسكان التي ذكرت فيها ولا ذكر محاسنهم ومساويهم إنما الغرض من نشرها بيان عقلية ذوي الثقافة في أهل الزمن الذي نظمت فيه فيما حكته عنهم وهي من جهة أخرى قد تعد أثراً تاريخياً قديماً يستحق ان يحرص على حفظه وصونه من الفقدان والضياع .

والذي أعتقده من ذوي الثقافة في هذه الايام انهم لا يحفظهم مايرونه في هذه القصيدة من ذكر مساوئ بلادهم اوأجناسهم فان سعة مدار كهم ترشدهم الى ان طباع الناس والأقاليم قد استحال الكثير منها الى الضد والنقيض اذ من نظر في مرآة الوجود وبحث في أحوال تلك البلاد وأخلاق أهلها وطبق محاسنها ومساويها على ماورد في هذه الأرجوزة —

تراءى له أن أكثر ما تضمنته قد أحاله الزمان الى عكسه فانقلب البلد العامر خرباً والخارب عامراً وهذا مصداق ما قاله الحكيم : « ليس ترداد حركات الفلك الا احالة الكائنات عن حقائقها » قيل ومنه أخذ المتنبي قوله :

ومن صحب الدنيا طويلاً تقلبت   على عينه حتى يرى صدقها كذبا

ان الكائنات تتأثر بالزمان اكثر من تأثرها بالمكان قال فيلسوف العرب النابغة المعري :

اما المكان فثابت لا ينطوي   لكن زمانك ذاهب لا يثبت

وله : يقال ان زماناً يستقيد لهم   حتى يبدل من بؤس بنعماء

وله : ان المواهب كلها عارية   ومن السفاهة غبطة بعطائها

وله : زمان يخاطب ابناءه   جهاراً وقد جهلوا ما عنا
يبدل باليسر اعدامهم   ويهدم احداثه ما بنا

ولابي تمام في المعنى :

ارض مصردة وأخرى تسجم   تلك التي رزقت وأخرى تحرم
واذا تأملت البلاد رأيتها   تثري كما تثري الرجال وتعدم
حظ تعاوره البقاع لوقته   واد به صفر وواد مفعم
حلب : كامل الغزي

وهذه هي القصيدة :

القصيدة الموعود بذكرها

الحمد لله على الهداية   والعلم والتوفيق والدراية
هذي قصيد الحدس والفراسة   نافعة لصاحب السياسة
يعرف منها كل مستسر   في الناس من ذي صالح وشر
وأسمي جنس فيهم النجابة   والرأي والتعريف والاصابة
وأيهم يرغب في السداد   ويقتفي للمهن الشداد
وأيهم في طبعه شراسه   وأيهم ليس له رياسه

ومن يكون صالحاً للخدمة ومن له عزيمة وهمة
وعلم ما أثرت البلاد في طبعهم وماله استفادوا
فافهم مقالي فهو عين الرشد ان كنت تبغي بغيتي وقصدي

« ذكر العرب »

خير البرايا والأنام العرب كذاك قال العالم المجرب
طابوا فروعاً وزكوا اصولاً لانهم لم يلدوا مجهولا
ونزلوا نجداً وارض نجد سليمة من كل طبع مرد
فسلموا من شره العراق وغلظة الشآم والرستاق
ففيهم العزة والحمية والشيمة الطاهرة الزكية
كراهة الغدر وبذل الجود والطعن بالمثقف الأملود
وفيهم الخداع والعداوة والشر والارهاب والقساوة
وفيهم نجابة الاولاد وعندهم فضائل الأمجاد
رعاية الجار وحق الضيف موجودة فيهم وضرب السيف
وفيهم تراحم وعطف وفيهم عتب وفيهم عنف
أمينهم ليس له مماثل كما الخؤون ماله معادل

« ذكر العجم »

والفارسيون لهم مكارم يعرفها من لهم يلائم
لهم خلال ولهم رياسة وفيهم السداد والكياسة
وعندهم بخل وفيهم كبر وعزة ومنعة وفخر
والرحمات عندهم كثيرة والنغمات فيهم شهيرة
وفيهم نجابة معروفة وهمة وعزمة موصوفة
وعندهم رأي وفيهم علم وصنعة وسكة وفهم

« ذكر الترك »

والترك فيهم قسوة وعظمة وجرأة ما ان لديها مرحمة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

لا يعرفون العفو والوفاء   ولا يرون الجود والسخاء
وفيهم النسيان والكفران   وفيهم الابطال والشجعان
وفيهم الليوث يوم الحرب   وفيهم كل مليح عذب
لهم قدود ولهم خصور   والوجنات الحمر والشعور
وفيهم نجابة الأولاد   لكن عروا من حكمة السداد

« ذكر الديلم »

والعقل في الديلم والسداد   في حسنهم ليس له نفاد
وفيهم شهامة وفضل   وعفة ورتبة ونبل
في نسلهم نجابة وقسوة   وغلظة في طبعهم وجسوة
وفيهم جبرية وظلم   وفيهم قساوة وغشم
وعندهم شطر من الآداب   ومن رجوع العقل للصواب

« ذكر الأكراد »

والشر كل الشر في الأكراد   لبعدهم عن منهج السداد
وفيهم للحرب والقتال   جلادة والطعن بالعوالي
لكن جميل الخلق والصباحة   ليست لهم كلا ولا السماحة
ونسلهم يصلح للجلاد   وللامور الصعبة الشداد

« ذكر الروم »

والروم فيهم أدب وظرف   وغلمة ونغمة ولطف
وفيهم العقول والألباب   وفيهم الآراء والصواب
وفيهم فوارس الشجاعة   والعلم والحكمة والصناعة
وفيهم اللذة والتمتع   لكنهم مافيهم تصنع
وفيهم البخل وذل النفس   وفيهم الفهم وصدق الحدس
لكل شيء يصلح الغلام   منهم وهذا الشرف التام

« ذكر الارمن »

وليس في الأرمن خير قاطع   ان كنت يا صاح اخا تفهم

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

للشغل الشاق من الاعمال برام ذو العز والجلال
وفيهم ضرب من الجمال لكنه يندر في الرجال
وفيهم قذارة وخسة وذل نفس ليس فيه لبسة

« ذكر الفرنج »

كذلك الفرنج شر الأمم في غلظ الطبع وخبث الشيم
أبخل من براه رب الناس من سائر الضروب والاجناس
لكنهم ابطال يوم الحرب واعمل الخلق بحد القضب
وعندهم سياسة قليلة وحكمة لكنها ضئيلة
وفيهم رشاقة القدود وحمرة الوجنات والخدود

« ذكر اللان »

واللان جنس خلقوا للخدمة وللعمانة وحفظ الحرمة
فان تردهم للنكاح والولد فانت في ذاك على غير الرشد

« ذكر الهند »

والهند فيهم عفة وفسق وقسوة وباطل وحق
لهم شعور ولهم قدود وهم اهيل وهم عبيد
ان استرقوا يصلحوا للرق وللطرفات[1] وللاشق
وللنتاج ثم للاولاد وللخصومات وللجلاد

« ذكر السند »

ألأمُ جنس الناس جنس السند فلا ترد منهم سلوك القصد
لهم خصور ولهم شعور لكنما أذاهم كثير
براهم الله الشديد الحول فاتبع سبيلي واستمع لقولي

« ذكر البربر »

أنجب أجناس الرقيق البربر لاسيما الجنس اللطيف الاصفر
للوطء والأولاد والبيوت يخترن لا للكد والتعنيت

(١) نسخة : وللضرورات .

نعم وفيهم للغناء طبع وللعلوم الرائقات جمع
والكيس والظرف لهم شعار فاخترهُ لجنسهم مختار
وفيهم سوء وخبث دخله وعندهم بخل وفيهم خله

« ذكر الزَّنج »

ان الزنج في العبيد وسط وأمرهم أمر به تخلط
بطلهن للنكاح لا للولد ثمت للخدمة والتودد
ما فيهم عقل ولا رياسة كلا ولا عندهم سياسة

« ذكر أجناس السودان »

وفي الزنوج غلظ الطباع وفيهم ميل الى البقاع
ما فيهم لناكحيهم منية ولا لقائهم غداً من بغية
الا لاهل الريف والرستاق وكل ذي أمر شديد شاق
براهم لذاك رب الناس فلا تكن عليهم بالآسي

« ذكر صقع سرنديب »

من في سرنديب يكون مولده يطيب منه عيشه ويحمده
ولا يزال ضاحكاً مستبشرا كأنما يشرب صرفاً مسكرا

« ذكر خراسان »

من في خراسان يكون شهما قاسي الفؤاد لا يراعي رحما
له رواء حسن ومبسم لكنه عن خيره مجمجم

« ذكر نيسابور »

كذاك نيسابور فيها عجب وليدها فيه البذا والعجب[1]
لا يعرف الفضل لرب الفضل لما عليه قد يرى من جهل
وفيهم شراسة وخفة وغلظة ومسكة وكلفة

« ذكر اصفهان »

وجيء فيها شرة وخيرة لكنها شهرتها الشهيرة

---

(١) كذا ولعله الصخب .

ليس لمن في ارض اصبهان خليقة غير اذى الجيران
لهم رداء ولهم جمال وفيهم الحيلة والادلال
وفيهم تعصب في الطبع لغير دين ولغير شرع

« ذكر الري »

والري فيها الكيس والظرافة لكنها في طبعها كثافة
لهم عقول ولهم آداب لكنما آراؤهم تصاب
وفيهم شجاعة وقوة وعندهم في طبعهم عتوة
وليدها يركب كل صعب ولا يخاف نازلات الخطب

« ذكر مرو »

ومرو في تربتها السلامة وفي بنيها النقص والفدامة
ليس بها فضل ولا وسامة ولا لها في اهلها كرامة

« ذكر طوس »

تولد الجهل مع المولود وتسلب الرشد من الرشيد
وليدها يعرف في الاقطار بانه من جملة الابقار
وفيهم شراسة وحدة وعندهم لآمة وشدة
والحسن في غلمانهم معروف لكنهم ليس بهم ظريف

« ذكر هراة »

وفي هراة كل امر معجب من العلى والدين والتأدب
وكل فضل من دقيق العلم في اهلها وكل أمر فخم
وفيهم بسالة وقوة لكنهم ليس لهم مروّة
وفي أبنائهم جمال ظاهر يعرفه المقيم والمسافر
وفيهم بغض لاهل الحق فيا لهذا من لئيم الخلق

« ذكر همذان »

وان ترد في همذان خيرا عز ولو انك كنت طيرا

مدينة في طبعهــا فظاظة ... وفي بنيها الشر والفلاظة
الجهل فيهم شائع مشهور ... والعقل بيهم خامل محقور
وفيهم دناءة ولوم ... وترف شيطانه رجيم
قد سلبوا الغيرة والسدادا ... والفوا الخصام والعنادا
وفيهم تعاشر في الذنب ... فيا لهذا من قبيح الادب
وفيهم محاسن وظرف ... لكنها ليس عليها عطف

« ذكر الاهواز »

وعند اهل الخوز والأهواز ... جماع كل الشر والمخازي
وفيهم علي دني الانفس ... بأس ولكن ليس عن تفرس
وفيهم من الجمال والمقه ... خليقة لكنها مستخلقه
وفيهم لباقة وشكل ... لكنها عم عليها الجهل
وقد سبى النساء للرجال ... في الحسن والعفة والاشكال

« ذكر مازندران »

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

مازندران في بنيها ظرف ... وعندهم رياسة ولطف
لكنهم في خلقهم شراسة ... وحدة أزرت على الرياسة
وفيهم تكرم وجود ... بعتاده الاحرار والعبيد

« ذكر البصرة »

وعند اهل البصرة الرداءة ... واللوم قـد ضما الى الدناءة
في تربة الارض وفي الهواء ... جبلة للفهم والذكاء
وفيهم شر وفيهم لوم ... شعاره عليهم معلوم
وفيهم سماحة الاخلاق ... قـد جبلت بالرقع والشقاق
وفيهم نتائج النفاق ... وكلا يجمع في الفساق

« ذكر الكوفة »

والكوفة الحمراء في هوائها ... عجائب وتربها ومائهـا
الغدر في ترابهــا مجبول ... والخير عن مياهها مشغول

وما لهم عهد ولا وفا؛ لكن عليهم غلب المراء
بالمبدعات عنهم سار المثل وطبق الارض سهولاً وجبل
وعندهم غوص على العلوم منثورها والمحكم المنظوم
وفيهم حسن الطلا معروف يعرف ذاك الفهم الظريف

« ذكر بغداد »

وعند بغداد اعتدال تام في ارضها ليس له اكتتام
مولودها افهم كل ناطق بالعلم والآداب والخلائق
وعندهم كيس وفضل شامل لكنه يشوبه مخائل
وفيهم عجب وتيه وصلف ودين كل ما حووه من لطف
وعندهم سوء وفسق زائد وفطنة لكنها مكائد
وعندهم من المراء والرما (١) ماليس يحصيه سوى رب السما
قد جبلوا على السرور والطرب والسعي بين الناس بالامر العجب
ليس لهم عهد ولا ميثاق خص بهذا الخلق العراق

« ذكر بابل »

وبابل شر البلاد والقرى تكسب طبع اهلها شر الأرا
فيهم خلاف وبهم شقاق وعندهم في دينهم نفاق
وفيهم دين ونسك شامل وفيهم الخداع والتحايل

« ذكر الموصل »

والموصل الحدباء خير منزل قليلة الاسواء والتعلل
لهم خواص في الغناء والطرب وكلما يكون من شرط اللعب
وعندهم سماحة وجود لكنها يفسدها التنكيد
لاهلها تيه وعجب زائد اكثره لفضلهم معاند
والدين في عرصتهم غريب والظلم والبغي لهم حبيب

(١) الرما لغة في الرياء .

«ذكر الجزيرة»

واسمع حديث صفة الجزيرة ... وماسرى عن اهلها من سيرة
ترابها وماؤها المناسب ... ليس به علم ولا آداب
لكنه أشيب بالجهالة ... والحمق المجبون بالرذالة
ما فيهم عقل ولا صباحة ... وجلهم صنعته الفلاحة

«ذكر نصيبين»

صاب نصيبين عذاب الحمى ... وخص فيهم ضرها وعما
فما ترى في ربعها صحيحا ... ولا فتى مهذباً مليحا
دأبهم الخصام والمهاترة ... والشر والتكذيب والمكابرة

«ذكر سنجار»

وارض سنجار فشر ارض ... لطالب العلم وباغي العرض
أخلاقهم سيئة ردية ... وكلهم في قبحهم سوية
لا يعرفون الجود والتكرما ... ولا الملذات ولا التنعما
قد شغلوا بتعب الأشغال ... عن العلى وكرم الخلال

«ذكر حران»

واهل حران فشر الناس ... في الوصف والتقدير والقياس
البخل فيهم أظهر الاوصاف ... بلا مماراة ولا خلاف
وفيهم من غلظ الاخلاق ... ما جل عن حكاية الحذاق
تقاصروا عن شرف الفضائل ... وانهمكوا في أرذل الرذائل

«ذكر الرها وماردين وآمد»

وفي الرها وآمد عجائب ... وماردين عندهم غرائب
كل اهاليها لئام بكم ... عن العلى والمكرمات صم
ليس لهم في الدين والعلوم ... حظ ولا في الشرف القديم
فيهم جفاء وشرور ونزق ... وعندهم في الود والحب مذق
وكل مولود من الغلمان ... في ارضهم يعيش كالحيران

ARCHIVE
http://archivebeta.sakhrit.com

ومن تربى فيهم صغيرا　　لم يك في رياسة كبيرا

«ذكر الرافقة»

لا سيما ان حل ارض الرافقه　　وحل في تربتهـا علائقه
وكان من ماء البليخ مشربه　　ومن ثراها أكله ومكسبه
فابك على ذكائه وفطنته　　وكبسه وعلمه وحكمته
كذا حكى الرواة عن هارون　　في وصفها ثم عن المأمون

«ذكر الشام»

والشام عين الارض والبلاد　　وخير دار وأجل ناد
يكسب من يحله جلادة　　وعزمة يعضدها نجـادة
وفيهم ميل الى الولاة　　ومن له شأن من الكفاة
وفيهم قنـاعة وصبر　　لا سيما ان حل يوماً أمر
لكنما الحدة فيهم عادة　　وغفلة تمازجهـا بلادة

«ذكر منبج»

فمنبج طيبـة البراري　　لاهلهـا رغيدة القرار
لكنها مفسدة للرائي　　مبيرة للفهم والذكاء
فيها جمال ولها بهاء　　وفي بنيها منطق هراء
طالعها ليس له سيادة　　ونجمها ما عنده افادة
وفي بنيها قوة وشدة　　لكنها ليس عليها عمدة

«ذكر حلب»

وحلب خزانة الذكاء　　وموطن العفة والحياء
طالعهـا للغرباء سعد　　وهي لمن فيها شقا وكد
لكنها تعطي دقيق العلم　　لأهلها من بعد لطف الفهم
لكنها نتيجة التلاحي　　وموطن المراء والكفاح
والعصبيات لديهم وافرة　　وعلقة الحذق عليهم ظاهرة

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

« ذكر حماة »

وفي حماة حمق وخفة　　وفيهم للمكرمات كلفة
لكنهم فيهم ذكاء ظاهر　　يعرفه من لم يعاشر
وفيهم غلاظة الطباع　　معروفة في سائر الاصقاع

« ذكر شيزر والمعرة »

سيف شيزر واختها المعرة　　خلائق الجهل وطبع الشرة
فشيزر جهل بلا مضرة　　والفهم والضر لدى المعرة

« ذكر حمص »

وعند حمص كل أمر معجب　　من نجدة وفطنة وأدب
لكنها منزلة الرقاعة　　وموطن الخفة والفراغة
وفيهم الحدة والبسالة　　وفيهم القوة والجهالة

« ذكر دمشق »

وفي دمشق منظر أنيق　　يعرفه العدو والصديق
وفي بنيها منظر عجيب　　وخلق نتاجه غريب
لهم رواء حسن وبر　　لكنه عن باطن يغر
وفيهم شكاسة الاخلاق　　وغلظة تنبو عن الشقاق
ودادهم اما شهدت وافي　　فان تغب فالود منهم خاف
وفيهم نجابة وباس　　لكنها ليس لها ايناس
وفيهم غلاظة وحدة　　وفيهم على الغريب شدة

« ذكر فلسطين »

وفي فلسطين وارض الأردن　　والشام الاعلى كل طبع حسن
هواؤه وماؤه والترب　　لأهله فيه معان عجب
تكسب من حل به او نزلا　　نجابة تدرأ عنه العللا
تنتج حب الدين والعبادة　　لأهله والصبر والزهادة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

لكنه يغلظ الاكبادا ويعظم الفطنة والسدادا
وفيه إمساك وبخل زائد وفطنة لكنها مكايد

ذكر مصر »

وعنـد مصر كل أمر معجب تحار فيه فكرة المهذب
طالعهـا باللعب والمزاح وخفة الأنفس والأرواح
وقلة الغيرة والوفاء والحب للآراء والاهواء
لكنها قرارة الفراعنة وخطة الأراذل الصفاعنة
وفيهم رياسة وهمة وشبق عند النسا وغلمة
والعشق فيهم والبذاء فاشي لبس لهم عن قبحه تحاشي
وفيهم علم وفهم وأدب وهمة الى العلاء والرتب

« ذكر المغرب »

وعند أهل المغرب الجفاء وقوة ليس بها مراء
وفيهم بخل شديد وقحة عند الجدال المراء ستنبجة
وفيهم شجاعة عند اللقا خليقة ليست لهم تخلقـا
وعنـدهم علم وفهم وافر وهمة تعرفها العشائر
والعصبيات لديهم جمه لكنهم آراؤهم ملتمه

« ذكر الحجاز »

في الحجاز العلم والذكاء واللطف والنجدة والعزاء
وفيهم دماثة الأخلاق والبأس يوم الخلف والشقاق
وفيهم الغضب وسلب المال والسوء والمكر على الرجال
لم ودّاد ولهم جمالـ وفيهم الاعطاء والافضال
وفيهم ميل الى اللذات والعشق والغناء والفرحات

« ذكر اليمن »

وعند اهل اليمن القباحة موجودة وقلة الرجاحة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وقلة العقل لديهم فاشية ... لكنما طباعهم مواتية
وعندهم فصاحة .علم ... وعزمة صادقة .فهم
وفيهم السخاء والتكرم ... .وفيهم غدر .شر بعلم

* * *

فهذه نتائج البلاد ... .كنه ما يختص بالعباد
نقلتها عن كل طب ندس ... رحب العلوم صادق التفرس
ظاهرة الدليل .البرهان ... واضحة المنار والتبيان
تنفع من يرغب في السياسة ... ويمتطي غوارب الرياسة
ويعتني بخبرة الانام ... من الأجلا ومن العوام
وقد أتت من حسن التهذيب ... تلقح رأي الفطن اللبيب

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الاسماء العربية للثمار النباتية

—(١)—

نشر العالم المحقق الدكتور امين باشا المعلوف في هذه المجلة بحثاً مستفيضاً في اصطلاحات النبات[1] بدأه بالبزرة وأنهاه بالزهرة وترك الثمرة وأشكالها دون ان يتعرض لها . ولاشك ان الألفاظ التي استقرءها الدكتور المشار اليه سواء أكانت من وضعه أم من وضع الذين تناولوا هذا البحث من قبله هي على ما رأيت أصلح ما يجب على المؤلفين اقتباسه لكتب علم النبات وكتب الزراعة وما اليها .

ولما كانت معرفة الاسماء العربية لمختلف الثمار تهم جميع الذين يدارسون العلوم النباتية والزراعية جئت بهذه المقالة لحقاً لبحث أمين باشا الذي له فضل السبق في هذا المضمار .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ولا يظن احد انني وضعت لأشكال الثمار أسماء لم يسبقني اليها العلماء من قبل . فالحقيقة ان عملي في هذا البحث يقتصر على تمحيص الألفاظ التي وضعها السابقون واختيار ما أراه منها أصلح من غيره . وربما لم يزد ماهو من وضعي (والأصح ما أنبه اليه قبل غيري) على لفظة واحدة أو لفظتين .

والكتب التي راجعت فيها الاسماء الموضوعة لأشكال الثمار هي الآتية :

أولاً كتاب الدر اللامع في النبات وما فيه من الخواص والمنافع تأليف انطون فيجري بك طبع سنة ١٢٥٧ هـ في مصر .

ثانياً كتاب مبادئ علم النبات تأليف جورج بوست طبع سنة ١٨٧١ في بيروت .

ثالثاً كتاب علم النبات الزراعي تأليف جون برسيفال ، نقل الى العربية في وزارة الزراعة المصرية وطبع سنة ١٩٢٠ م .

(١) أنظر م ٧ ص ٢٨٩ وم ٨ ص ٣٢١ و ٤٦٥ من مجلة المجمع العلمي العربي .

رابعاً معجم العلوم الطبية والطبيعية للدكتور محمد بك شرف .

خامساً أهم كتب النبات المدرسية التركية ككتاب الدكتور اسعد شرف الدين . طبع في القسطنطينية سنة ١٩١٢ و كتاب حسين رمزي بك ، طبع سنة ١٣٢٠ مالية في القسطنطينية و كتاب الدكتور شرف الدين مغمومي ، طبع سنة ١٩٠٩ في مصر . وغيرها وهي أربعة كتب أخرى .

سادساً مفردات ابن البيطار ومعاجم اللغة الأصلية .

***

لايخفى على الذين لهم إلمام بمبادئ علم النبات ان الثمار تقسم ثلاثة أقسام أساسية وهي البسيطة والمركبة والمؤتلفة (أوالمدغمة أوالمشتركة) . وان الاولى اي البسيطة على ثلاثة أشكال : جافة ولحمية ومابينهما . وان الشكل الاول اي الثمار الجافة منها التي لاتنفتح عندما تنضج ومنها التي تنفتح .

فمن الثمار الجافة التي لاتنفتح ثمرة يسمونها بالفرنسية (Achaine) تكون بزرتها منفصلة عن الغلاف الثمري وقد سماها جميع المؤلفين المار ذكرهم «فقيرة» الا الدكتور محمد بك شرف فانه عرب اللفظة الأعجمية فقال أخينيوم وأخين ؛ وأرى انه يلزم الاحتفاظ بلفظة الثمرة الفقيرة التي شاعت منذ نحو قرن الى يومنا هذا .

ومنها ثمرة تدعى بالفرنسية (Caryopse) تكون بزرتها وغلافها الثمري متلاحمين كحب الحنطة والشعير والذرة وأشباهها . وقد سماها فيجري بك «الثمرة اليابسة» . وسماها بوست وشرف «الحبة» ووردت في كتاب علم النبات الزراعي بلفظة «البرة» أما الاتراك فانهم أطلقوا عليها لفظ «الثمرة القلوبة» و«الثمرة المجوزة» وأرى ان «البرة والحبة» هما أصلح لفظ لهذا الشكل من الثمار .

ومنها ثمرة تدعى (Samare) لها زائدة كالجناح منهم من عرب اسمها الاعجمي فقال «سمارة» ومنهم من سماها ثمرة مجنحة وثمرجناحي . اما بوست فدعاها بالمفتاح . وأظن ان لفظ «الثمرة الجناحية» أرجح ماتسمى به .

ومن الثمار الجافة التي تنفتح ثمرة تدعى (Capsule) لم أجد لها اسماً في معجم شرف ولا في كتاب بوست . وجاءت في كتاب فيجري باسم «الثمارالجونية» وكذا في كتب الاتراك

الا واحداً منهم سماها « العلبة » كما سماها مترجموا كتاب علم النبات الزراعي • وعندي ان أصلح لفظة لهـذه الثمرة هي الجرو ج. جراء • فقد ورد في اللسان ان الجرو « وعاء بزر الكمابير وفي المحكم بزر الكمابير التي في رؤوس العيدان » • وجاء في المخصص « ... وكأن سنابله جراء الخشخاش ... » • تلت وثمرة الخشخاش هي كبسول نباتياً •

اما لفظة العلبة فيرجح استعمالها لثمرة أخرى جافة ينفتح نصفها الأعلى كما يُفتح غطاء العلب ويسمونها بالفرنسية (Pyxide) • وسميت في معجم شرف وفي كتاب علم النبات الزراعي « الثمر الحقي » ودعاها الأتراك باسم « الثمر الصوني ؟ » اما بوست فأطلق عليها لفظة العلبة وهو أرجح اسم لها على ماأرى •

ومن الثمار الجافة التي تتفتح تلك التي تدعى (Follicule) وهي ذات غلاف ثمري واحد يتصدع على امتداد تدريز واحد ايضاً • وقـد سماها جميع من ذكرنا من المؤلفين « ثمرة جرابية » الامترجمي كتاب جون برسيفال فقد أسموها « الحوصلاء » واللفظة الاولى أرجح لانها متفق عليها •

ومنها ثمار نباتات الفصيلة القرنيـة كالفول والفاصولياء وأشباهها وتـسمى بالفرنسية (Gousse) وغلافها الثمري يتفتح على امتداد تدريزين • وقد سماها المؤلفون ثماراً قرنية وثماراً بقلية ونسب الدكتور شرف الى الجمع فقال « ثمر بقولي » • وأصلح لفظة لها هي السنفة والحُبْلة • فلفظة السنفة استعملها ابن سيده وابن البيطار لهذه الثمار • وورد في اللسان « يقال لأكمة الباقلاء واللوبياء والعدس وما أشبهها سنوف واحدها سنف » • ومن البديهي ان الكم في هذه الجملة هو الغلاف الثمري بعينه اي مايدعى بالفرنسية (Carpelle) والسنفة تطلق على ذلك الغلاف وعلى البزور التي هي ضمنه اي على الثمرة كلها •

وجاء في اللسان « الحُبلة ثمر السَّلَم والسيّال والسَّمُر وهي هنة معقّفة فيها حب صُغار أسود كأنه العدس • وقيل الحبلة ثمر عامة العضاه وقيل هو وعاء حب السلم والسمر واما جميع العضاه بعدُ فان لها مكان الحبلة السنفة » •

ومنها الثمار المسماة (Silique) كثمار الخردل واللفت والملفوف والمنثور وقد وردت في كتاب لجيري و كتب الاتراك باسم « الثمار الخرنوبيـة » وسماها بوست « الجيبة ؟ » وجاءت في كتاب جون برسيفال بلفظة « الثمر الخردلي » اما الدكتور شرف فقال « ثمر

خردلي ، ثمر بقولي ، حبلة » قلت وأصلح الجميع « ثمر خردلي » اما ألفاظ « ثمر بقولي وحبلة » فغلط .

هذا في الشكل الاول من الثمار البسيطة وهي الثمار الجافة اما الشكل الثاني اي الثمار المحمية فهي ايضاً تحتوي على أصناف عديدة نكتفي بذكر أصلح الألفاظ العربية لها دون الخوض في بحث تفريق بعضها عن بعض نباتياً لان ذلك من متناول كتب النبات .

فمن الثمار المحمية التي يكون فيها الغلاف الثمري الداخلي ملتحماً بالغلاف الأوسط ثمرة تدعى (Baie) كالعنبة وقد سماها الأتراك وبوست وشرف « الثمار العنبية » ووردت في كتاب فيجري و كتاب يوسيفال باسم « الثمار اللبية » ولعل الاولى أصلح . ومما يدخل في هذا الباب الثمار التي تدعى (Péponides) وهي الثمار البطيخية كثمار البطيخ والخيار والقرع وأشباهها .

ومن الثمار المحمية التي يكون فيها الغلاف الثمري الداخلي منفصلاً عن أجزاء الثمرة السائرة تلك التي تدعى (Hespérides) وهي الثمار البرتقالية والأتراك يسمونها الثمار النارنجية .

ومنها الثمار التفاحية (Mélonides) وقد أجمع كلهم على تسميتها بهذا الاسم .

ومنها التي تدعى (Drupe) كثمرة المشمش واللوز والخوخ فقد سماها الترك « عجمة » وهي في اللغة شجرة الزيتون البري . ولست أرى لهذه اللفظة مبرراً في هذا المقام . وكذا لفظة فصاة التي جاءت في معجم الدكتور شرف لان القصى في كتب اللغة حب الزبيب واحدته قصاة . ولعل أصلح لفظة تلك التي استعملها بوست وشرف وهي « ثمرة نووية » .

والشكل الثالث من الثمار البسيطة هي التي بين الجافة والطرية كالثمار الرمانية (Grenade)

اما القسم الثاني من الثمار اي الثمار المركبة فان منها الثمرة التوتية (Sorose) والثمرة التينية (Sycone) والثمرة الصنوبرية (Cône) وهي كلها لاخلاف فيها .

واما القسم الثالث من الثمار اي الثمار المؤتلفة فكثمر العليق (Fruit des Rubus) الذي يسميه الأتراك « ثمرنواق » خطأ وكاجتماع فقيرات في ثمار بعض الانواع النباتية .

وبعد يلخص بحثنا هذا على الشكل الآتي :

أصلح الالفاظ العربية	« اللفظة الفرنسية »
الثمرة الفقيرة	Achaine
البرة ، الحبة ، الثمرة الحبية	Caryopse
الثمرة الجناحية	Samare
الجرو	Capsule
العلبة	Pyxide
الثمرة الجرابية	Follicule
السنفة ، الجلجلة	Gousse
الثمرة الخردلية	Silique
« العنبية	Baie
« البطيخية	Péponide
« البرتقالية	Hespéride
« التفاحية	Mélonide
« النووية	Drupe
« الرمانية	Grenade
« التوتية	Sorose
« التينية	Sycone
« الصنوبرية	Cône
« العليقية	Fruit des Rubus

مصطفى الشهابي

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

آراء وأفكار

—(١)—

الخط العربي

[النقط . الشكل — الحركات . علامات الفصل الخ]

للعلاَّمة المرحوم الشيخ طاهر الجزائري مصنَّف نفيس اسمه « توجيه النظر الى اصول الأثر » عثرنا فيه على بحث ممتع في الخط العربي وعلائم الفصل والوقف والحركات المشوبة بغيرها وغير ذلك مما يستدعيه إصلاح الخط حسبما يتمناه أفاضل هذا العصر . البحث طويل يستغرق نحو عشرين صفحة وقد لخصنا منه بعض ما له علاقة بالموضوع مباشرة قال :

علم قوانين الكتاب أو الخط معروف : وهناك علم يسمى علم قوانين القراءة وهو علم تعرف منه العلامات المميزة بين الحروف المشتركة في الصور والعلامات الدالة على الادغام والمد والقصر والفصل والوصل والمقاطع الخ . وهذا العلم وعلم قوانين الخط متلازمان لغاية واحدة وهي معرفة دلالة الخط على اللفظ . وقد ذكر بعضهم ان شدة الاحتياج الى هذين الفنين وفرط عناية النفوس الانسانية بمعرفتهما وتعلمهما أغنت عن التصنيف فيهما .

وقال بعضهم الخط علامة فكلما كان أبين كان أحسن . وأهل العلم وان لم يستقبحوا إغفال الشكل في المكاتبات فانهم يعدون ذلك في كتب العلم مستقبحاً . وكثيراً ما دعا حسن الخط الى المطالعة في كتاب لا يميل المطالع اليه . ومن ثمة جودة الخط مراعاة المناسبة بين الحروف بعضها مع بعض وبين الكلمات كذلك . ومن ثمة ذلك مراعاة الفواصل وحسن التدبير في فصل الكلمات . وللخط استمداد من الهندسة ولذلك قال بعض الحكماء الخط هندسة روحانية وان ظهرت بآلة جسمانية . والخط العربي يمكن فيه من السرعة ما لا يمكن في غيره ويحتمل من تكبير الحروف وتصغيرها ما لا يحتمل غيره ويقبل من التنوع ما لا يقبله غيره . والمشهور من أنواعه : (المونق) (الثلث) (النسخ) (التوقيع) (الريحان) (المحقق) (الرقاع) .

ولكل منها شيء يختص به : (فالمحقق) و (الريحان) يختص بالمصاحف والأدعية . و (النسخ) بالتفسير والحديث ونحوهما . و (الثلث) بالتعليم . و (التوقيع) بالتواقيع الكبار التي للامراء والقضاة والاكابر . و (الرقاع) بالتواقيع الصغار والمراسلات . و (المؤنق) بكتابة الشعر . والخط الدقيق لا ينتفع به احد بل ربما ضعف نظر صاحبه فلا يعود ينتفع به هو ايضاً . وقال ابو حكيمة كنا نكتب المصاحف بالكوفة فيمر بنا علي بن ابي طالب فيقوم علينا فيقول أجلّ قلمك قال فقططت منه ثم كتبت فقال : هكذا : نوّروا ما نوّر الله عز وجل . وقد يكون في تدقيق خط الكتب فائدة كأن يكون صاحبها رحالاً يحمل كتبه معه . قال محمد بن المسيب الارغياني : كنت أمشي في مصر وفي كمي مئة جزء في كل جزء الف حديث . وقيل لابي بكر عبدالله الفارسي وكان يكتب خطاً دقيقاً لم تفعل هذا ؟ فقال : « لقلة الورق والورِق . وخفة الحمل على العاتق » .

وقد اختلفت خطوط الامم من حيث الحركات واتصالها بالحروف وعدمه فكان الخط العربي والعبراني والسرياني مما توضع حركته فوق الحرف أو تحته وبذلك تيسر لهم ان يجروا على مقتضى الحال من الشكل عند الاشكال وتركه عند عدمه أو عند شدة الاستعجال .

وللخط العربي مزايا منها وضع علائم الوقف بحيث يُقرأ فيها بدون توقف . وعابه بعضهم بان فيه من الاشتباه ما لا يوجد في غيره من الخطوط لكن الشكوى تزول اذا التزم فيه الشكل وعلائم الوقف ونحوه .

والعربية أخت السريانية وحروفها أخوات حروفها . واتفق ان وجد في العربية حروف ستة زائدة : هي حروف (ثخذضظغ) فلم يخترعوا لها صوراً جديدة بل صوراً مناسبة لأخواتها القديمات فصارت الثاء مع التاء والخاء مع الحاء والذال مع الدال والضاد مع الصاد والظاء مع الطاء والغين مع العين على صورة واحدة .

وقد اخترعوا النقط للحروف فزال ما كان يقع من الاشكال بين المتشابهات منها : كالحاء والخاء والدال والذال والسين والشين الخ فصاروا لا يكتبون الا بالنقط سوى بعض الكتب القديمة فانها كُتبت بدون نقط جرياً على الطريقة القديمة ثم روعي النقط تماماً الا التواقيع فانهم اعتادوا كتابتها بدون نقط كما في الشهادات والصكوك وهذا أيضاً مما لا ينبغي ان يقع .

وكانت الحروف العربية قديماً من دون شكل كسائر الخطوط السامية ثم اخترعوا الحركات تحتها أو فوقها لا في صفها كالخطوط السامية الاخرى . وجعلوا للمد علامة أو حرفاً خاصاً داخلاً مع الحروف الممدودة في الصف مما لا يوجد نظيره في الخطوط الأخرى . والحركات ست : حركة محضة : ضمة فتحة كسرة . وحركة مشوبة وهي التي تكون بين حركتين غير خالصة الى احداهما كالحركة التي بين الفتحة والكسرة وهي الالف الممالة الى كسرة — وكالحركة التي بين الفتحة والضمة وهي الالف الممالة الى ضمة — وكالحركة التي بين الكسرة والضمة وهي الياء الممالة الى ضمة أو الضمة الممالة الى ياء .

ويتولد منها حركات أخرى لكن هذه الست هي الاصول . وقد رأى كثيرون من فضلاء العرب اليوم وجوب إحداث علامات تدل على الحركات المشوبة ليكون الخط العربي وافياً بالغرض فيما اذا كتبنا كلمات أجنبية فيها شيء من تلك الحركات الفرعية والاوقع تحريف في تلك الكلمات يؤدي أحياناً كثيرة الى تغيير المعنى ولو دعا داع الى هذا في عهد الخليل ابن احمد لبادر هو أو أحد تلاميذه الى تلبية الداعي .

وقد يقال لماذا لم يضع الأسلاف علامات لهذه الحركات المشوبة وأجاب بعضهم بان السبب هو كون تلك (الحركات المشوبة) ليست في لغة قريش التي هي المقصود الاول وعليها عند اختلاف اللغات المعول . ويضم الى هذا ما كان لهم من شدة العناية بالرواية والتلقي من الأفواه فلم تبق ثمة حاجة الى إحداث علامات للحركات الفرعية . على ان من بحث وتتبع وجد أنهم وضعوا علامات للحركات المشوبة ايضاً وقد ذكرها سيبويه في كتابه كما ذكرت في كتاب (المحكم في نقط المصاحف وكيفية ضبطها) لابي عمرو الداني فاستحسن بعضهم جعل علامة الفتحة الممالة الى الكسرة — الفتحة الاصلية نفسها لكنها مقلوبة بحيث يكون طرفها متجهاً الى جهة اليمين هكذا (ـَ) وقد جعل بعضهم هذه العلامة مشتركة بين الامالة الصغرى والامالة الكبرى الا انه فرق بينهما فجعل في الامالة الكبرى تحت الحرف . وربما زاد بعضهم على ذلك فوضع فوق الألف نقطتين هكذا (آ) وجعلها في الامالة الصغرى فوق الحرف وقد التزم هؤلاء ان يكتبوا ذلك بالمداد الأحمر .

وأما الفرس ونحوهم فان الأولى لهم أن يضعوا علامة الامالة تحت الحرف وذلك

لأمرين : أحدهما ان الإمالة ليست من الامور الطارئة في لغتهم ولذا كتبوا حرف المد الذي بعدها بصورة الياء : الثاني أنهم وان عدوا من كسر نحو صبر وشبر مما ألفوه — لاحنا فانهم يعدون من فتحه أشد لحناً . والظاهر أنه ينبغي لمن أراد أن يكتب نحو قس وزن وكل بالإمالة كما ينطق به العامة وهو في الاصل مكسور — أن يجعل علامة الامالة تحت الحرف رعاية لماذكر . وقد التزم بعض الكتاب ان يجعل الفتحة اذا تلاها مد قائمة وبعضهم لم يلتزم ذلك الا في بعض المواضع نحو يرقى ويروي ويهوى والمرتقى والمتقى ونحو راس وباس واستاذن اذا خففت فيه الهمزة بخلاف مثل كاتب وكتابة حتى ان بعضهم يرى عدم لزوم الفتحة فيه مطلقاً لدلالة الالف عليها وخصها بعضهم بالمواضع التي حذف فيها حرف المد نحو هٰذا وهٰؤلاء وهٰهنا والإٰله والرحمٰن والسمٰوات ولٰكن ونحو ذلك . وكما التزم بعضهم أن يجعل الفتحة اذا تلاها مد قائمة ـ التزم بعضهم ذلك في الكسرة فجعلها قائمة اذا تلاها مد سواء أكان ذلك في موضع لا يخشى فيه الاشتباه نحو كريم ورحيم وكبير وجليل أو كان في موضع يخشى فيه الاشتباه نحو (أدبي وأقصي وأعطي وأولي وأبدي وأخفي) فانها أفعال مضارعة للمتكلم وهي اذا فتحت ياؤها صارت أفعالاً ماضية للغائب الا ان الداعي هنا أضعف من الداعي فيما قبله والأولى للكاتب أن لا يلتزم شيئاً لا يلزم خشية أن لا يقوم بحقه . هذا وقد يظن ان الفتحة والكسرة قد وضعتا من أول الأمر على صورة واحدة غير أنه فرق بينهما بجعل الفتحة من فوق والكسرة من تحت وليس الامر كذلك فان الخليل لما وضع العلائم جعل علامة الضمة واواً صغيرة توضع فوق الحرف — وعلامة الفتحة الفاً صغيرة فوق الحرف الا أنه جعلها منجعة وعلامة الكسرة ياء توضع تحت الحرف واختار لذلك الياء المردودة وهي التي يرجع بها الى الجهة اليمنى هكذا (ـے) الا انها تغيرت فيما بعد حتى صارت كالفتحة . وقد اختار بعض العجم وضعها فوق الحرف علامة على الامالة الا أنه اختصر فيها حتى صارت هكذا (ـےـ) ومناسبة الياء للامالة لا يخفى ولو وضعت تحت الحرف لم يكن في ذلك بأس لتميزها بصورتها ويمكن التصرف فيها على أوجه شتى مختلفة الوضع هكذا (ﺣ ﺣ ﺣ ﺣ) وينبغي لمن أراد ذلك اختيار أسهلها عليه . وأما الضمة المشوبة بالفتحة فالأولى أن تجعل علامتها نفس الضمة المشهورة بدون زيادة شيء عليها الا أنها تجعل مقلوبة بان يكون طرفها متجهاً الى الاعلى

هكذا (ء) وذلك مثل (الصلوٰة والزكوٰة والحيوٰة) في العربية عند من يكتبها بالواو ويجعل حركة ما قبلها ضمة مشوبة بالفتحة مثل زور وآشوب في الفارسية وينبغي تسمية هذه الحركة بالضمة المشوبة وبزيادة هاتين العلامتين يتيسر كتابة الفارسية بدون إخلال بشيء من حركاتها وذلك ان الفرس وكثيراً من الامم لا يوجد في لغتهم الاخمس حركات وهي الضمة والفتحة والكسرة والفتحة المالة الى الكسرة والضمة المشوبة بالفتحة واما الضمة المشوبة بالكسرة فالأولى ان تجعل علامتها نفس الضمة المشهورة بزيادة خط تحتها متصل بها هكذا (ُ) وهذه الصورة مناسبة لما وضعت له لان وضع شبه الكسرة تحت الضمة يشعر بأن هنا حركة ممتزجة من حركتين هما الضمة والكسرة وان الضمة متقدمة على الكسرة وعالية عليها وان كان التقدم هنا والسبق على طريق المجاز . مثال ذلك مررت (بمذعُور وابن بُور) وهذه الحركة وان كانت قليلة في العربية فهي كثيرة في بعض اللغات المشهورة وينبغي تسميتها بالضمة المالة لأن في لفظ الامالة بحسب العرف اشعاراً بوجود الميل الى الكسر ومما يترك لهذه الحركة رد ونحوه من المضاعف المبني لما لم يسم فاعله . وقد أشار الى ذلك سيبويه حيث قال : أما ما كان من بنات الياء فتمال ألفه لانها في موضع ياء وبدل منها فنحوا نحوها كما أن بعضهم يقول قد (رُد) وقال الفرزدق :

وما (حُل) من جهل حبا حلمائنا ولا قائل المعروف فينا يعنف

فيشم كأنه يخو نحو فعل فكذا نحوا نحو الياء : وأما الكسرة المشوبة بالضمة فالاولى أن تجعل علامتها نفس علامة مقابلتها وهي الضمة المشوبة بالكسرة لكونها أشبه الحركات بها الا أنها توضع مقلوبة هكذا (ِ) ومثال ذلك قيل وجيء وخيف وهيب وانقيد واختير وخفت وهبت وينبغي أن يكتب مثل قيل وجيء على هذه اللغة بالياء دون الواو وذلك لأن الحرف الذي ينشأ عن هذه الحركة هو الى الياء أقرب منه الى الواو : وقد ذهب بعض الناس الى كتابته في غير العربية بصورة الواو وذلك لكونه مشوباً به وجعل الحركة التي انشأ عنها نوعاً من أنواع الضمة لكونها مشوبة بها وهو مخالف للظاهر فان الظاهر كون هذه الحركة نوعاً من أنواع الكسرة لان الكسر أغلب عليها وكتابة الحرف الذي نشأ بصورة

الياء لكونه أشبه بها . وأما في اللغة العربية فيتعين كتابته بالياء لثلاثة أمور : (أحدها) ماذكر وهو كونه أشبه بها . (الثاني) ان أشهر اللغات فيه هي لغة من يلفظ به بالياء . (الثالث) رعاية الاحتياط فانه اذا كتب على هذه اللغة بالواو ولم ينتبه القارئ للاشمام وأتى بالضم الخالص يكون قد ترك اللغة الفصيحة وهي لغة من يشم الكسرة ضمة الى لغة غير فصيحة وهي لغة من يقول فيه قول وجوء بالضم الخالص . وأما اذا كتب بالياء فانه اذا لم ينتبه للاشمام وأتى بالكسر الخالص يكون قد ترك اللغة الفصيحة وهي لغة من يشم الكسرة ضمة الى اللغة التي هي أفصح منها وهي لغة من يقول قيل وجيء بالكسر الخالص . وأكثر الناس في أمر العلائم اما مفرّط واما مفرط . فمن المفرطين في ذلك من لا يكاد يضع علامة في موضع من المواضع . ومن المفرطين فيه من لا يكاد يترك موضعاً بغير علامة وقد رأيت بعض قراء الفرس جعل لما ونحوها علائم فجعل لما الشرطية الطاء وللاستفهامية الميم وللموصولة الثاء اشارة الى أنها خبرية لا النافية وللزائدة الصاد اشارة الى انها صلة في الكلام وللكافة الكاف وجعل ذلك فوق ميم ما وكتبه بأحرف صغيرة بمداد أحمر وجرى على مثل ذلك في كثير من الاشياء والاولى في أمر العلائم ان لا توضع الاحيث يضطر اليها أو يبعث عليها باعث .

وهاك جدولاً في الحركات ومايتعلق بها :

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أسماء الحركات	العلامات		مثالها بالعربية	مثالها بالفارسية	معناها
الضمة	ـُ	ou	جُدْ	بُرْ	ملآن
الضمة المشوبة	ـٗ	o	صلُوة	خُودْ	نفسه
الضمة الممالة	ـُ	u	رُدْ	•	•
الكسرة	ـِ	i	صِلْ	چِه	أي شيْ
الكسرة المشمة	ـٖ	eu	هِبْ	•	•
الفتحة	ـَ	a	هَبْ	سَرْ	رأس
الفتحة الممالة	ـٰ	é	دَرَجه	سَه	ثلاثة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وهذا المبحث واسع الأطراف جداً وفيما ذكرنا كفاية للطالب المتنبه والله الموفق •

***

ومن إجادة الخط مراعاة علائم الوقف • وقد اصطلح كتاب القرآن الكريم على علائم مختلفة لأقسام الوقف المختلفة : فجعلوا (التاء أو الميم) للوقف التام و(الحاء) للحسن و(الكاف) للكافي و (الصاد) للصالح و (الجيم) للجائز • وقد التزموا كتابة هذه العلائم بالأحمر ووضعها فوق موضع الوقف • وللسخاوي تقسيم آخر للوقف وجعل لكل قسم علامة خاصة غير ماذكر توضع فوق محل الوقف وتكون بالمداد الأحمر والأقسام الخمسة هي : (اللازم) و(المطلق) و (الجائز) و (المجوز لوجه) و (المرخص للضرورة) : فعلامة اللازم (الميم) وعلامة المطلق (الطاء) وعلامة الجائز (الجيم) وعلامة المجوز (الزاي) وعلامة المرخص (الصاد) • وهناك وقف قبيح جعلوا علامته (لا) •

وللكتّاب اصطلاحات أخرى في العلامات (فالسين) علامة السكتة وهي الوقف اللطيف من غير التنفس · و(القاف) علامة الوقف الذي قال به بعض العلماء دون بعض · و (قف) علامة على ان الوقف مستحب لا واجب ·

ومن جملة علامات الوقف ما اصطلح عليه المحدثون من وضع (دارة) بين الحديثين للفصل بينهما · وكان بعضهم يدع بقية السطر أبيض ليكون البياض مؤكداً للفصل · ومنهم من جعل البياض علامة الفصل وهو مختلف المقادير حسب المقتضيات من تعلق المعاني بعضها ببعض قلة وكثرة وقد أشار الى ذلك ابن السيد حيث قال : والفصل انما يكون بعد تمام الكلام الذي ابتدئ به واستئناف كلام غيره · وسعة الفصول وضيقها على مقدار تناسب الكلام فان كان القول المستأنف مشاكلاً للقول الاول أومتعلقاً بمعنى منه جعل الفصل صغيراً وان كان مباينًا له بالكلية جعل الفصل أكبر من ذلك فاما الفصل قبل تمام القول فهو من أعيب العيوب على الكاتب والورّاق جميعاً · وترك الفصول عند تمام الكلام عيب ايضاً الا انه دون الاول اه · وكان الصحابة لا يعرفون شيئًا مما أحدث في المصاحف الا النقط الثلاث على رؤوس الآيات · وقيل اول ما أحدثوا النقط عند آخر الآيات ثم الفواتح والخواتم · وقال قتادة بدأوا فنقطوا ثم خمسوا ثم عشروا · أي كتبوا الاعشار والاخماس وأسماء السور وعدد الآيات · وقال بعض المقرئين : لا أستجيز النقط بالسواد لما فيه من التغيير لصورة الرسم · وأرى أن تكون الحركات والتنوين والتشديد والسكون والمد بالحمرة والهمزات بالصفرة · واول من فعل الشكل في الصدر الاول بطريق النقط هو ابو الاسود الدؤلي · واما الشكل المتداول الآن فمن وضع الخليل فالفتحة عنده الف صغيرة فوق الحرف والضمة واو صغيرة فوقه ايضاً والكسرة ياء صغيرة مردودة تحته ووضع لكل من الهمزة والتشديد والروم والإشمام والسكون علامة ·

وينبغي ان يتخذ للوقف اربع علائم :

(١) علامة السكت وهي خط هكذا (—) يوضع بعد الحرف المسكون عليه والمراد بالسكت الوقفة الخفيفة مثال استعمالها ماتراه في هذا الشعر من قول بعض القضاة :

[فما خفض الأعادي قدر — شاني ولا قالوا فلان ٌ قدْ — رشاني]

وقول الكميت :

[وما أنا ممن يزجر الطيرَ — ∴ أصاح غراب أم تعرض ثعلب]

فالسكتة الخفيفة في المواضع الثلاثة لازمة لتساعد على فهم المعنى المراد ·

(٢) علامة الوقف الحسن وقد اختلفوا فيها : فمنهم من جعلها كتابة الكلمة الاولى بالحبر الأحمر · أو كتابة الحرف الأول ولا سيما ان كان واواً او بوضع خط أحمر فوق الكلمة الاولى — كل ذلك إشارة الى ان تلك الكلمة مما يسوغ الابتداء بها وان ماقبلها يسوغ الوقف عليه · ومنهم من يجعل العلامة نقطة صغيرة ومنهم من يجعلها واواً مقلوبة هكذا (،) وهذه العلامة هي التي نختارها مثال استعمالها :

« سوسوا أحرار الناس بمحض المودة ، والعامة بالرغبة والرهبة ، والاسافل بالمخافة · »

(٣) علامة الوقف الكافي واو مقلوبة يزاد عليها نقطة أو خط تمييزاً بينها وبين علامة الوقف السابقة هكذا [؛ او ، —] ·

(٤) علامة الوقف التام نقطة كبيرة هكذا (·) ومنهم من يجعلها ثلاث نقط على هيأة نقط الشين (∴) أو دائرة مطبقة (○) أو منفرجة (∩) · واذا كان الوقف التام أنواعاً فيحسن أن يجعل لكل منها علامة من هذه العلامات الأربع ومنهم من جعل للوقف التام علامات غير هذه ·

ومن العلامات التي اصطلح عليها الكتّاب رقم (اه) المختزلة من (انتهى) حينما يريدون ان الكلام المنقول قد انتهى وتم · واذا حذفوا جملة في خلال الكلام يقولون (قال) وينتقلون الى ذكر مايريدون بعد حذف المحذوف ثم نحتوا من (قال) حرف القاف فيكتبون هكذا (ق) · واصطلح المتأخرون على وضع علامة للاستفهام واخرى للتعجب وهو حسن اذا روعي وضعها في محلها المناسب لا أن يخبط في وضعها خبط عشواء · واما وضع علامة قبل مقول القول للدلالة عليه فيحسن اذا خيف التباس أو نحوه · ومبحث العلامات مبحث واسع الاطراف جدير بان يفرد بالتأليف اه ملخصاً ·

مطبوعات حديثة

—٥—

ديوان الحلاج

[ترجمه الاستاذ لويس ماسينيون]

« طبع في باريز في المطبعة الأهلية — ص ١٥٨ من القطع الوسط. »

الاستاذ لويس ماسينيون أحد أعضاء مجمعنا العلمي متفرغ لدراسة الصوفية ، وله في هذا الباب كتاب : الحسين بن منصور الحلاّج بحث فيه عن الحلاّج من جامع نواحيه بحثاً مستفيضاً مبنياً على القواعد الحديثة في التنقيب وله كتاب آخر بحث فيه عن أصول مصطلحات الصوفية . وله كتاب فيه أربعة نصوص تتعلق بترجمة الحلاّج .—

وآخر ما أهداه الى المجمع العلمي : ديوان الحلاّج فقد رتب هذا الديوان ونقله الى اللغة الفرنسية ونشره .—

قد يكون نقل الشعر من لغة الى لغة مركباً خشناً لما في كل لغة من الخصائص والأسرار التي لا تكون في لغة غيرها ، ففي لغة استعارات اذا نقلت الى لغة ثانية كانت ضرباً من السخرية .—

أما نقل المصطلحات الفلسفية من لسان الى لسان فليس فيه من المصاعب ما في نقل صور اللغة الشعرية وخاصة ان كانت اللغة المنقول اليها مشتملةً على المصطلحات المجرّدة أي على خصائص اللغة الفلسفية .—

وشعر الحلاّج انما هو شعر فلسفي ليس فيه الاّ القليل من الصور الشعرية وانما احتوى على صور مجرّدة بعيدة عن الاستعارات وأمثالها فألفاظ العلم والايمان والتجاريب والجسم

والروح والخاطر والوهم والفكر وأشباهها مما اشتمل عليه شعر الحلاّج انما هي ألفاظ مجردة غير لاصقة بالمادة فلا يصعب وجود أمثالها في اللغة الفرنسية تدل عليها الدلالة الواضحة دون شيء من كد الذهن .

من أجل هذا السبب كان نقل الاستاذ ماسينيون لشعر الحلاج من العربية الى الفرنسية نقلاً واضحاً حرص فيه صاحبه على خصائص لغة الحلاج وأسرارها .—

شفيق جبري

الموجز التاريخي

[للصف الثالث الابتدائي]

« قررته وزارة المعارف في مصر سنة ١٩٣١—١٩٣٢ »

ألفه هنري الشماع مدير مدارس جمعية الايمان القبطية بشبرا ويوسف فهمي أستاذ الآداب والتربية بالقسم العالي بالأزهر الشريف .—

طبع بمطبعة رعمسيس — ٤١ شارع الظاهر — مصر .

رسالة مدرسية صفحاتها ٣٨ .—

جاء فيها كلام مختصر على العرب وعلى النبي صلى الله عليه وسلم وعلى الخلفاء الراشدين : رضي الله عنهم .—

وعلى خالد بن الوليد وعمرو بن العاص .—

وعلى معاوية بن ابي سفيان وعلى هرون الرشيد .—

وعلى احمد بن طولون وعلى المعز لدين الله الفاطمي وعلى الحاكم بامر الله وعلى صلاح الدين الايوبي وعلى شجرة الدر وعلى الظاهر بيبرس وعلى قانصوه الغوري وعلى سليم الاول وعلى محمد علي بك الكبير .—

وفي الرسالة خرائط وصور بعض المساجد في مصر كجامع عمرو بن العاص وجامع بن طولون وجامع الغوري وصلاح الدين وسليم الاول ٠—

وفي آخر كل فصل أسئلة تتعلق بالفصل ذاته ٠—

توخى المؤلفان في رسالتهما سهولة اللغة ولكن هذه السهولة قد خرجت بهما في بعض المواطن عن متانة التركيب فلا يقال : قالب شيق ، ولا يقال تحقق من موته ولا يقال : اشترك في حروب ضد الروم الى أشباه هذه التراكيب الضعيفة فقد يكون الكلام سهلاً من غير ان يكون ضعيفاً في مبناه ٠

شفيق جبري

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

بحث لغوي في الراء
« بمعنى الرأي »

[بقلم جبران النحاس]

كراسة صغيرة صفحاتها اربع عشرة أثبت فيها صاحبها طائفة من الأقوال التي جاءت فيها كلمة الراء بمعنى الرأي ٠

اما الشعراء الذين استشهد بأشعارهم فهم : مطيع بن أياس وأبو العتاهية وأبو نواس وابن الرومي وابن الهبّارية وعمرو بن عثمان القيني والبحتري والمعتز وابن نباتة السعدي وأبو الفرج الببغاء والشريف الرضي ونجم الدين بن صابر المنجنيقي ٠

وأما الكتّاب فهم : أبو اسحق الصابي ، أبو منصور الثعالبي ، القاضي عبد القادر الجرجاني وقد أورد صاحب الكراسة أبياتاً لابي تمام وردت فيها كلمة الراء منها :

فاذا رأيت أمرىء أو صبرّه   يوماً فقد عاينت صورة رائه

فقال الصولي في شرحه على هذا البيت : هـذا شيء استعمله الطائي وغيره فأما مذهب سيبويه في ذلك فاذا حُمل عليه كان كالعيب لأنه لايجعل همزة حوبائه وما كان مثلها اذا

خفف ياء خالصة ولكن تكون بينَ بينَ وياء رأيه ياء خالصة لايجوز قلبها الى الهمزة في هذا الموضع فيقع الاختلاف في الروي وأما غير سيبويه فلا يبعد في مذهبه أن يجعل همزة حوبائه ومثلها اذا خفف ياء وهو مذهب ضعيف ونحو من ذلك ماجاء في شعر أبي النجم لأنه قال :

هل تعرف الربع عفت جواؤه

وقال فيها :

وعزَّ شاء المغربين شاؤه

فواء شاؤه لايجوز ان تهمز .همزة جواؤه لايجوز أن تجعل ١٠ اً خالصة .

شفيق جبري

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

—

مصطلحات علمية

« والترجمة والتعريب »

كنت منذ شرعت تدريس العلوم الطبيعية والرياضية في المدارس العربية بدمشق ، أي منذ عشرين عاماً ، أرجح ان آخذ هذه العلوم عن الكتب الغربيـة ، اذ لامشاحة في أن بلاد الغرب هي منبع هذه العلوم في هذا العصر ، لكنني كنت ألاقي في سبيل الوصول الى غايتي عقبات جمة في ترجمة المصطلحات الأعجمية الى اللغة العربية ، فان نفسي كانت — ولاتزال — تأبى استعمال تلك المصطلحات على علاتها أو تعريبها لاعتقادي بان كلا الحالتين لايخلو من الدلالة على احد امور اربعة : (الاول) عدم المبالاة باللغة العربية مما يعرضها للفساد والتشوه فتصبح بمرور الزمن مزيجاً من لغات مختلفة محرفة الألفاظ مكسرة الحروف بحيث لايجدر أن يقال عنها انها «اللغة العربية» بل يجب أن تسمى باسم آخر ، فتبقى اللغة الأصلية مدفونة في ضرائح الكتب كاللغة اللاتينية وغيرها من اللغات المهجورة لا يعرفها ولايقوم بذكرها سوى أفراد قلائل من محبي التفكه بها والولعين بالاطلاع على قديمها ، ثم ان هؤلاء يأخذ عددهم في النقص كلما أخنى الدهر عليها وأفناها الى ان تندرس وتتلاشى فتصبح نسياً منسيا ، (والامر الثاني) من الامور الاربعة التي يدل عليها تحبيذ التعريب : التكاسل عن بذل شيء من الهمة في التفتيش عن ألفاظ عربية تقوم مقام المصطلحات الأعجمية المراد تعريبها ، (والثالث) العجز عن ذلك ، (والرابع) العمد الى إفساد اللغة لسوء قصد بها .

فلما كنت اعتقد بما تقدم من ان الميل الى التعريب لاتخرج أسبابه عن الامور الاربعة المذكورة ، ولما كنت أعتمد على سعة اللغة العربية معتقداً بان كل معنى يجول في الذهن لابد من أن يكون له فيها لفظ ولو كان كامناً في أغوار معاجمها — كنت آخذ على نفسي أن

لا أجتاز عقبة من عقبات تلك المصطلحات دون تذليلها بترجمتها الى العربية ولو تكبدت في ذلك أعظم المشقات وفاديت بأعز الأوقات . وقد وفقت ولله الحمد الى ترجمة جميع المصطلحات التي لاقيتها في نقل ما نقلته الى العربية من العلوم الغربية حتى الآن وخطتي في تلك الترجمة مبنية على ما يلي :

اولاً : ان لا أتقيد بالترجمة الحرفية بل كنت أترجم بعض الآلات مثلاً بالفاظ تفيد فعلها أو خاصة من خواصها كترجمتي Coupe - circuit « بالحارزة » وهي الآلة المعروفة عند العامة (بالبوشون) تجعل في مسير التيار الكهربائي حتى اذا اشتد التيار الى درجة الخطر احترقت فانقطع التيار فاندفع الخطر فهي إذن تحرز من خطر الحريق ولذا سميتها بالحارزة ، فلو أردنا ان نترجم أعجميتها بالحرف للزم ان نسميها (قاطعة الدارة الكهربائية) ففي تسميتها بالحارزة منفعتان الاولى استعمال لفظ واحد بدلاً من ثلاثة الفاظ والثانية ان يفهم من اسمها ماخاصتها وما فائدتها ، وذلك كما ترجم بعض الأفاضل (بالون) بالمنطاد و (صُومارِن) بالغواصة و (اوتوموبيل) بالسيارة مع ان كلمة بالون لا يفهم منها الانطياد بل يفهم شيء منتفخ كروي الشكل و (صومارن) معناه (تحت البحر) لا (الغواص) واوتوموبيل معناه (المتحرك من نفسه) لا (السيار) مع انه لا يتحرك من نفسه فيتضح من ذلك ان هذه الأسماء العربية أقرب الى فهم حقيقة مسمياتها من أسمائها الأعجمية نفسها ، وهذا من جملة محاسن نقل الاسماء الأعجمية الى العربية بالفاظ عربية دون تعريبها كما سنبين ذلك في مقال آخر ان شاء الله .

ثانياً : ان أتجنب في الترجمة الصيغ غير القياسية كاسم الآلة والصفة المشبهة وان اختار الصيغ القياسية كاسم الفاعل ومبالغته واسم المكان أسوة بالمتقدمين الذين ولدوا كلمات كثيرة على هذه الأوزان فان اسم الآلة سماعي لا يصح ان نصوغ على وزنه ما نشاء من الاسماء لان أوزانه كثيرة فالعرب انتخبوا لكل آلة وزناً من الأوزان المعلومة وهكذا جاءت أسماء الآلات مسموعة عنهم فكما انه لا يسوغ لنا ان ننقل أحد هذه الأسماء من وزنه الى وزن غيره من سائر الآلات ، فلا يجوز لنا مثلاً ان نقول بدلاً من ملعقة ملعق وزان مثقب او ملعاق وزان مفتاح أو أن نشتق احد تلك الاسماء من فعل غير الفعل الذي اشتقه منه العرب فنقول (مأكلة) بدلاً من (ملعقة) ، كذلك لا يجوز لنا أن نصوغ اسماء جديدة

علي أوزان اسم الآلة ، واما اذا كان ثمت اضطرار الى وضع اسماء لمسميات حديثة لم تكن عند العرب فالمجال أمامنا واسع لاستعمال كثير من الصيغ القياسية كاسم الفاعل واسم المفعول واسم المكان ومبالغة اسم الفاعل وهي صيغ لاخلاف في قياسيتها وليس لكل منها سوى وزن واحد خلافاً لاسم الآلة الذي كثرة أوزانه لابد من ان تؤدي الى الخلاف بين المترجمين واللغويين فاذا ترجم احدنا (مكرسكوب) مثلاً بالمجهر (بالكسر) كان لغيره الحق ان يترجمه بالمجهار ولآخر بالمجهرة ومن هنا الخلاف في وضع المصطلحات واتساع الفوضى اللغوية التي نسعى الى إزالتها ، اللهم الا اذا انعقد مؤتمر لغوي عام منتخب من جميع البلاد العربية مفوض اليه توليد ما يرتئيه من الاسماء ، يقر اللفظ ثم ينشره بين العرب دفعة فيكون استعماله شبه إجباري بالتواطوء بحيث لايصح لمؤلف اومترجم او كاتب ان يستعمل غيره[1] واذا لم يعقد هذا المؤتمر فان ترجمة الاسماء الحديثة على الصيغ القياسية الآنفة الذكر خير من ترجمتها على أوزان سماعية لاينشأ من السير عليها الا الخلاف والتفرق في الرأي .

ثالثاً : اذا كان اللفظ الأعجمي كلمة واحدة ولم تمكن ترجمته بكلمة عربية واحدة فاني لاأتقيد بذلك إذ لاضرورة اليه بل يمكن ان تترجم الكلمة الأعجمية الواحدة بكلمتين عربيتين علي ان يكون ذلك موافقاً لقواعد اللغة كما ترجمت (الكترود) بالمنفذ الكهربائي و(مترونوم) بميزان الغناء و(ترمومتر) بميزان الحرارة « وان يكن ترمومتر مركباً في الاصل من كلمتين فانه في الظاهر كلمة واحدة » وكذلك كل ما كان مركباً من (متر) وكلمة أخرى نحو بارومتر (وهو ميزان الجو) ومانومتر (وهو مقياس الضغط) وإغرومتر (وهو مقياس الرطوبة) ، وماالمانع لهذه الترجمة ؟ فان قيل ان المصطلح العربي صار كلمتين مع ان مقابله الاعجمي كلمة واحدة فالأرجح ان يبحث عن كلمة عربية واحدة تقوم مقام كلمتين —

(١) ومما يجدر بهذا المؤتمر ان يعرض الكلمات التي يستحسنها على أنظار الناس في المدن العربية الكبرى على صفحات جرائدها وان ينظر فيما يرد عليه في تلك الكلمات من الملاحظات وذلك الى مدة معينة ثم يقرها ، وبذلك يمكن التواطوء على ان يكون استعمال كلماته والأخذ بآرائه شبه إجباري فينتظم الحال وتزول الفوضى ، والا فان اعماله تذهب من هذه الوجهة سدى على ما نظن .

قلت فان وجدت تلك الكلمة فهي مرجحة على غيرها بلاريب ولكن على ان تفيد المعنى المراد وان تكون موافقة لقواعد اللغة ، لا كما أراد بعضهم ان يترجم ترمومتر (بالحرار) ومانومتر (بالمضغاط) وإغرومتر (بالمرطاب) فهب اننا تواطأنا على توليد أسماء جديدة على أوزان اسم الآلة فان (مضغاط) مثلاً لا يفيد المعنى المراد من مانومتر وهو « الآلة التي يقاس بها الضغط » بل يفهم من مضغاط « الآلة التي يفعل بها الضغط » كما يفهم من مفتاح الآلة التي يفعل بها الفتح لا التي يقاس بها الفتح ، وشتان ما بين المعنيين . فما الذي يضيرنا من استعمال كلمتين ترجمة لكلمة واحدة اذا لم تساعد سليقة لغتنا على غير ذلك . ألم يكن كثير من الكلمات العربية يقابلها في اللغات الاعجمية كلمتان او اكثر كقولهم Face antérieure (وهما كلمتان) مع ان عربيتها ُمقدّم (وهي كلمة واحدة) وقولهم Pendant deux jours (وهي ثلاث كلمات) وعربيتها يومين (وهي كلمة واحدة) وقولهم Un morçeau de fer (وهي اربع كلمات) وعربيتها حديدة (وهي كلمة واحدة) وقولهم Il est venu (وهي ثلاث كلمات) وعربيتها جاء (وهي كلمة واحدة) ، فهل ضبطنا بذلك أصحابُ هذا اللسان وقاموا يسعون الى التفتيش عن كلمات مفردة تقوم مقام هذه العبارات ؟ كلا ، فان لكل لغة قوالب فالترجمة هي ان يؤخذ المعنى من اللغة المترجم منها ويفرغ في قوالب من اللغة المترجم اليها ، وعكساً لما تقدم فان سليقة لغتنا كثيراً ما تساعد على ترجمة المصطلح الاعجمي المركب من كلمتين او اكثر بكلمة عربية واحدة كما ترجمتُ Ultra - microscope (وهي مركبة من ثلاث كلمات) بكلمة عربية واحدة وهي (الجهّارة) .

وان قيل ان (ميزان الجو) مركب إضافي وهو مما تصعب النسبة اليه فكيف نترجم Hauteur barométrique مثلاً ؟ قلت لا ضرورة لترجمة النسبة بالنسبة ، بل يمكن ترجمتها بمركب إضافي فلك ان تقول في ذلك « ارتفاع ميزان الجو » (مجازاً اي ارتفاع زئبقه) فتكون دللت على المعنى المراد من العبارة الاعجمية مفرغاً في قالب عربي .

فهذه هي القواعد التي بنيت عليها خطتي في ترجمة كثير من مصطلحات العلوم وحيث ان بعض أصدقائي طلب اليّ ان أنشر تلك المصطلحات على صفحات هذه المجلة ، فنزولاً عند رغبتهم ، سأقوم بنشرها تباعاً مبتدئاً ببعض مصطلحات جاءت في كتابي المطبوع «القطوف

اليتيمة في علم الطبيعة » وقد درجتها كما يلي جاعلاً أرقاماً في حذاء ما لم يسبقني احد اليه منها والله الموفق .

***

١ — [Calorie — حَرَيْرة]

ان كل ماقبل الزيادة والنقصان يقال له في علم الطبيعة (قَدْر) افرنسيته Grandeur كالطول والمال والحرارة ولاجل مقايسة كل قدر من الأقدار اضطر البشر الى ان يتخذوا من ذلك القدر جزءاً معيناً ليقايس به سائر أجزاء القدر وقد اصطلح علماء الطبيعة على ذلك الجزء (بالواحدة) — افرنسيتها Unité [1] — غير ان أكثر الواحدات تختلف باختلاف الامم فواحدة الطول — مثلاً عند العرب الذراع وعند الافرنسيين المتر وعند غيرهم الاصبع والأنش والميل الخ حتى ان بعض الواحدات يختلف عند الامة الواحدة ايضاً بحسب استعماله ، فالافرنسيون اذا أرادوا قياس طول معتدل اتخذوا له المتر واحدةً وفي قياس الأطوال الصغيرة يتخذون السنتمتر وهو جزء من مائة جزء من المتر وفي قياس الطرق الطويلة يتخذون الكيلمتر وهو الف متر وما لم يكن لبعض الواحدات المستعملة عند الغربيين في العلوم الحديثة ،مقابل عندنا قد اضطررنا الى ان نقتبسها منهم ونستعملها في علومنا وصنائعنا التي طالما أخذناها عنهم . فلاثبت اثناء ترجمتي بعض كتبهم طائفة من هذه الواحدات أردت ان استعمل لها الفاظاً عربية فلم أجد أوفق من طريقة قد أتتني بالفاظ عربية فيها من الفوائد ما لم يكن في أصلها الأعجمي وهذه الطريقة هي :

ان آخذ مصدر المرة من مادة القدر المراد قياسه ثم أصغر ذلك المصدر ، مثال ذلك : عندما أردت أن أضع لفظاً يقابل Calorie [2] وهي الواحدة التي تقاس عليها كية الحرارة

---

(١) وقد ترجم بعضهم Unité بالوحدة وهي ترجمة حرفية لامبرر لها لان الوحدة مصدر مع ان المراد من Unité هنا ليس المصدر بل الاسم وكذلك كثير من اسماء المصادر الافرنسية يرد بمعنى الاسم المطلق أو اسم المفعول نحو Radiation فانه اسم مصدر بمعنى الاشعاع ميرانه يرد بمعنى الشعاع وكذلك Solution وهو الحلّ فهو يرد بمعنى (المحلول) .

(٢) Calorie مشتقة من كلمة لاتينية وهي Calor او Caloris ومعناه الحرارة .

— أخذت مصدر المرة من الحرارة وهو (حَرَّة) ثم صغرته فصار (حُرَيْرة) ففي ذلك فائدتان: الاولى كون مصدر المرة يفيد الوحدة والثانية كون التصغير يفيد ان الكمية المفهومة من ذلك اللفظ هي جزء صغير متخذ للقياس عليه فهاتان الفائدتان غير موجودتين في معنى اللفظ الاعجمي وزد على ذلك انهم يضطرون أحياناً الى اتخاذ واحدة للحرارة اكبر من الواحدة المذكورة الف مرة فيسمونها Grande calorie مما يجعلهم في حاجة الى تقييد الاولى بـ Petite calorie واما انا فقد سميت Grande calorie بالحرّة و Petite calorie بالحريرة . فلايخفى ما في ذلك من الاختصار وخفة اللفظ .

٢ — [Dyne — أُيَيْدة]

٣ — [Mégadyne — أَيْدة]

٤ — [Sthène — آد]

Dyne واحدة متخذة لقياس القوة تساوي جزءاً من ٩٨٠ جزءاً من ثقل الغرام في دمشق [1] فترجمتها بالأُيَيْدة تصغيراً للأَيْدة وهو مصدر مرة من آد الشيء اذا قوي واشتد وصلب لأن Dyne كلمة مشتقة من Dunamis اليونانية ومعناها القوة ، ثم ان عندهم للقوة واحدتين أخريين احداهما مايسمونه Mégadyne وهي مركبة من كلمتين يونانيتين وهما [Mégas — اي كبير] و [Dunamis اي قوة] فمعنى هذه الواحدة أُيَيْدة كبيرة وهي تساوي الف الف أُيَيْدة [2] فسميتها (أَيْدة) والثانية مايعبرون عنه بـ Sthéne وهي من Sthénos اليونانية ومعناها القوة ايضاً وهي تساوي مائة أيدة فترجمتها بـ (آد) بمعنى القوة ايضاً .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

(١) او جزء من ٩٨١ جزءاً من ثقل الغرام في باريز لان الاشياء في باريز أثقل منها في دمشق لكون باريز أقرب من دمشق الى مركز كرة الارض وهو مركز الجاذبية التي تولد ثقل الاشياء وهكذا كلما بعد عن خط الاستواء تقرباً من أحد قطبي الارض ازدادت الجاذبية الارضية فازدادت الاشياء ثقلاً لان القطبين أقرب الى مركز كرة الارض من خط الاستواء لانضغاط هذه الكرة في قطبيها كما هو معلوم في علم الجغرافية .

(٢) اذا جعلوا في المقياسات Méga في صدر الكلمة أفاد معنى الف الف مرة واذا جعلوا Micro أفاد معنى جزء من الف الف جزء .

٥ — [Dioptrie — كُسَيرة]

هي واحدة لقياس درجة كسر العدسات البلورية لأشعة الضوء وقدر هذه الواحدة قوة عدسة اذا ورد على أحد وجهيها حزمة أشعة متوازية خرجت هذه الحزمة من وجهها الآخر متقاربة بعضها من بعض حتى تتلاقى في بعد عن العدسة قدره متر . واصل Dioptrie، (Dioptron) وهي كلمة يونانية مؤلفة من Dia بمعنى من بين و Optesthai بمعنى رأى ، فتكون كسيرة ليست ترجمة Dioptrie بالحرف ولاضرورة الى ذلك كما كنا قدمنا .

٦ — [Barye — ضُغَيطة]

٧ — [Pièze — ضغطة]

Barye واحدة متخذة لقياس الضغط وقدرها ضغط أبيدة[1] على سنتمتر مربع واحد وهي كلمة يونانية أصلها Barus ومعناه (الثقل) فترجمتها بالضُغَيطة لأنها واحدة قياس الضغط ، و Pièze كلمة يونانية ايضاً أصلها Piézein ومعناه (ضغط) تستعمل لقياس الضغوط الكبيرة وتساوي الف مليار ضُغَيطة فترجمتها (بالضغطة) .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

٨ — [Lumen — ضُوَيّ]

٩ — [Lux — نُوَير]

Lumen كلمة لاتينية معناها الضوء سموا بها واحدة اتخذوها لقياس شدة الضوء فترجمتها (بالضوي) و Lux كلمة لاتينية معناها النور سموا بها واحدة اتخذوها لقياس درجة تنور الاشياء بالضوء فترجمتها (بالنوير) ولا يسع المقام هنا تعريف هاتين الواحدتين .

١٠ — [Erg — عُمَيلة]

Erg كلمة مأخوذة من Ergon اليونانية ومعناها السعي اتخذوها لقياس مايقال له في علم المكانيك (العمل المكانيكي) فسميت هذه الواحدة (عُمَيلة) جرياً على القاعدة التي قدمت بيانها .

١١ — [Loupe — مكبِّرة]

١٢ — [Microecope — جاهرة]

١٣ — [Ultra - microscope — جهّارة]

(١) راجع الكلمة رقم ٢

١٤ — [Lunette — نظّارة]
[Télescope — راصدة]
[Photographe — مصوِّرة]

Microscope كلمة مؤلفة من الصدر Micro وهو يفيد جزءًا من الف الف جزء من المتر او Micros بمعنى (صغير) ومن Scope وهي مشتقة من Skopein اليونانية ومعناها (تَحَصَّص) فيكون المعنى «آلة صالحة لفحص الاشياء الدقيقة» فترجمتها (بالجاهرة) بمعنى (كاشفة) من جهر الشيء اذا كشفه وفي الحقيقة ان الآلة المذكورة تكشف ما لا تستطيع العين ان تراه من دقائق الاشياء وقد ترجم بعضهم مكرسكوب بالمجهر (بكسر الميم على صيغة اسم الآلة) مع ان اسم الآلة سماعي لا يسوغ لنا ان نبني على أوزانه اللهم الا بالتواطوء كما قدمت ذلك في اول المقال .

ومما يحسِّن لنا ترجمة مكرسكوب بالجاهرة دون المجهر كون المجهر له معان في اللغة العربية «فالمجهر من الكلام والصوت : الجهير ويقال رجل مجهر اذا كان من عادته ان يجهر بكلامه» فلا يخفى ما في استعمال المجهر بمعنى (مكرسكوب) من الالتباس بين هذه المعاني وزد على ذلك انه اذا ترجمنا Microscope بالجاهرة تسنى لنا ان نترجم Ulta-microscope بالجهّارة (بصيغة المبالغة) وهي آلة تكشف ما لا تستطيع الجاهرة ان تكشفه من دقائق الاشياء فما أجمل المناسبة التي بين اللفظين العربيين (جاهرة وجهّارة) بالنظر الى اللفظين الافرنجيين Microscope و Ulta - microscope ولولا هذه المناسبة بين الصيغتين العربيتين لحرنا بماذا نترجم اللفظ الثاني ومعناه «ماوراء الجاهرة» .

[Oculaire — العينية]
١٥ — [Objectif — الجرمية]

للجاهرة عدستان مكبرتان احداهما مايضع الناظر عينه عليها فيقال لها عينية ترجمةً لـ Oculaire والثانية التي توجه الى المادة المفحوصة ، وقد عبّرت عن هذه المادة بالجرم ترجمةً لـ Objet وان لم تكن ترجمة حرفية غير ان قلة استعمال لفظ الجرم تساعد على ان يجعل له شبه تخصيص بالمادة التي تفحص بالجاهرة اوغيرها من الآلات البصرية وكان الحق

ان يترجم Objet بالشخص لانه ضد الخيال غير ان كثرة استعمال الشخص لا سيما في غير معناه الاصلي لاتساعد على التخصيص المذكور وعلى ذلك ترجمت Objectif بالجرمية ·

١٦ — [Revolver — دوّارة]

في الجاهرة آلة يعلّق بها بضع جرميات فتدار على محورها لتجعل الجرمية المراد استعمالها امام الجرم المفحوص فتشبيهاً لها بالآلة التي تبدّل فيها القذائف في المسدسات سموها Revolver فترجمتها بالدوارة لدورانها على محورها ولاشتقاقها من Eo revolve الانكليزية ومعناها كلَّبَ ولَفَّ ·

[الصفيحة — Lame]

١٧— [القَراشة — Lamelle]

يجعل الجرم المراد فحصه بالجاهرة على صفيحة رقيقة من زجاج ثم يستر بصفيحة أخرى من زجاج أرق من الاولى كثيراً فالاولى معروفة «بالصفيحة» ترجمة لـ Lame اما Lamelle فكان حقها ان تترجم «بالصُفَيّحة» بصيغة التصغير لكن مشابهتها للاولى في الرسم تؤدي الى الالتباس فاضطررت الى ترجمتها بالقَراشة (بفتح الفاء وتخفيف الراء) وهي في الأصل كل رقيق من عظم أوحديد ·

١٨ — [Diaphragme — الحِظار]

في الجاهرة تحت عدستها الجرمية صفيحة مستديرة في وسطها ثقبة لتحديد حزمة أشعة الضوء التي تدخل الجرمية فسموا هذه الصفيحة Diaphragme من كلمة يونانية Diaphragma ومعناها الحجاب فترجمتها بالحظار (بالكسر) وهو كل شيء حجز بين شيئين وانما رجحت الحظار على الحجاب ليكون أقرب الى التخصيص بالصفيحة المذكورة لانه أقل استعمالاً من الحجاب ·

[Alcool — الغَوْل]

Alcool كلمة تستعمل بمعنى ما يستقطر من الخمر وتعبر عنه العامة بالاسبرتو ووجود الالف واللام في صدر كلمة Alcool يدل على انها عربية الاصل لكنه قد تضاربت الآراء في أصلها فمن قائل كل أوكحول ومن قائل كؤول أو كهول أو قلي الى غير ذلك ، اما الكحل فليس من وجه شبه بينه وبين المائع المبحوث فيه إذ ان الاول جامد والثاني مائع والاول

أسود والثاني بلالون اللهم الا اذا قلت ان الأصل كُحيل (بضم ففتح) وهو النفط « زيت الكاز » فهو يشبه الاسبرتو في أمرين : السائلية وسرعة الاحتراق . وأما كؤول فأقرب لفظ عربي اليه الكؤولة ومعناها أن يشتري الرجل أو أن يبيع ديناً له على رجل بدين لذلك الرجل على آخر وهذا المعنى ايضاً لاعلاقة له بمعنى Alcool ، وأما كهول فمعناه ان يصير الرجل كهلاً وهذا ايضاً بعيد عما نبحث فيه ، وكذلك لم أر مناسبة بين الاسبرتو وبين القَلي والحاصل اني لم أجد لفظاً أوفق للمطلوب من الغول (بفتح الغين) من غاله يغوله اذا ذهب بعقله أو بصحة بدنه ، ولاجرم أن الاسبرتو يذهب بعقل شاربه وبصحة بدنه وتسميته بالمصدر للمبالغة لانه هو مادة الإسكار في كل شراب مسكر ، وقد جاء في القرآن الكريم « لا فيها غول ولا هم عنها يُنزَفون » أي ليس في كأس الشراب التي يطاف بها على أهل الجنة خمار يغتال عقولهم ولا يصدرون عنها سكارى .

[شعاع — Rayon]
١٩ — [شعاعة — Radiation]
[اشعاع او تشعشع — Rayonement]
٢٠ — [شُعْع — Vecteur]
٢١ — [مُشِع — Radiant]
٢٢ — [مُشِعّة — Radiateur]
٢٣ — [شعيع — Roue]

الشعاع ضوء الشمس الذي تراه كأنه حبال مقبلة عليك وفي الاصطلاح الشعاع الخط الهندسي الذي ينتشر عليه الضوء افرنسيته Rayon وقد دل علم الطبيعة على ان شعاع الضوء الابيض ليس بسيطاً بل هو مؤلف من ألوان لاتحصى أشهرها سبعة معلومة في ذلك العلم فسموا كل لون منها Radiation فترجمتها بالشعاعة لان الشعاعة واحدة الشعاع .

وأما Vecteur فهي كلمة اصطلحوا بها في علم الهندسة على كل خط ممتد بين محرق الشكل الدوراني [كالقطع الناقص والقطع الزائد] وبين محيطه ومعنى Vecteur الشعاع ايضاً فترجمته بالشُّع [بضم الشين وتشديد العين] لانه بمعنى الشعاع .

وأما Radiant فهو من مقاييس محيط الدائرة في علم الهندسة ترجمته بالمُشِع .

وأما كلمة Radiateur فقد عبروا بها عن آلة تستعمل لتدفئة المكان بهواء حار يجري فيها فترجمتها بالمُشِعَّة لان هذه الآلة تنشر حرارتها كما تنشر الشمس أشعتها ·

وأما Rone — وهو ما تُرجم بالدولاب أو بالعجلة — فأرى الافضل ان يترجم بالشعيع وهو في اللغة العجلة لاسيما وان قضبانه تكون ممتدة من وسطه الى محيطه كالأشعة ·

٢٤ — [Incandescence — التوهّج]
٢٥ — [Luminescence — التلألُؤ]
٢٦ — [Phosphorescence — البصيص]
٢٧ — [Fluorescence — البريق]

يصطلحون بـ Incandescence على إضاءة الشيء ساخناً وبـ Luminescence على إضاءته بارداً وبـ Phosphorescence على نشره أشعة في الظلام وبـ Fluorescence على نشره أشعة في الضوء وهو يثار فخصصت التوهج بالحالة الاولى والتلألُؤ بالحالة الثانية والبصيص بالحالة الثالثة والبريق بالحالة الرابعة ·

٢٨ — [Projecteur — النوّارة]
٢٩ — [Projecteur — المُوَرِّمة]

يعبر الافرنسيون بكلمة Projecteur عن آلتين مختلفتين في الشكل وفي الاستعمال وكان الأجدر ان يعبروا عن كل منهما بلفظ خاص به · أما الاولى فتستعمل لاجل إنارة المواضع البعيدة وتبادل اشارات المخاطبة بتقطيع الضوء بفترات معينة فسميتها بالنوّارة (بالتشديد) لشدة نورها ولقوة ارسالها أشعة الضوء الى بعد شاسع · وأما الثانية فهي تستعمل في إيقاع الأخيلة(١) على ستار ابيض في غرفة مظلمة كإيقاع الصور المتحركة(٢) وغيرها فسميتها بالموقعة (بضم الميم وكسر القاف) ويقال لها « الفانوس السحري » ·

« للبحث صلة »

الطبيب : محمد جميل الخاني

(١) الأخيلة جمع خيال وأما خيالات لجمع خيالة · (٢) سينما ·

ألف ليلة وليلة

تاريخ حياتها

—(○)—

« المحاضرة الثانية »

ليس من اليسير على الباحث الكشف عن حقيقة كتاب كألف ليلة وليلة أصله مفقود ، ومؤلفه مجهول ، وزمان وضعه مبهم ، ومكان حوادثه مشتبه ، لاننا اذا فزعنا الى التاريخ نسأله قال : إن ما يتصل بالأقاصيص والأساطير كان خارجاً بطبيعته عن اختصاص الاديب ومنهاج المؤرخ ، واذا رجعنا الى نص الكتاب ندرسه لنتبين من لغته وأسلوبه وأسماء أبطاله ومواطن رجاله وعقائد أهله — تقليب كل جنس وجيل في تكوينه وجدناه من هذه الجهة ضعيف الحجة خادع الرأي المبل الغناء ، لان كثيراً من النساخين والقصاصين في البلاد المختلفة قد اعتوروه فنقلوه على وفق لهجاتهم ، وعبثوا به على مقتضى شهواتهم ، حتى لاتجد نسختين منه تتفقان لافي الترتيب ولا في النص . ففي حكاية البنات مع الحمال والصعاليك الثلاثة مثلاً يقول الصعلوك الثاني : انه قرأ القرآن بالروايات السبع وحفظ الشاطبية ، والشاطبية في علم القراآت كالألفية في علم النحو ، وفي بعض النسخ لايذكر الشاطبية ويكتفي بذكر الروايات السبع . فلو ان ذكر الشاطبية كان عاماً في جميع النسخ لحكمنا بان هذه الحكاية كتبت بعد سنة ٥٩٠ وهي السنة التي توفي فيها الشاطبي . وفي حكاية مزين بغداد يذكر المزين الفيلسوف سنة ٧٦٣ في نسخة وسنة ٦٥٣ في نسخة أخرى ، فعلى اي الرقمين نعتمد في تاريخ هذه الحكاية ؟ إذن لم يبق للباحث غير الاعتماد على النقد المبني على تاريخ الحضارات المقارن وعلى مابقي في الكتاب من صور الاساليب ورسوم التقاليد التي لم يشوهها الناسخ ولم يعف عليها الزمن .

كان أول من ذكر الف ليلة من المؤرخين علي بن الحسين المسعودي المتوفى سنة ٣٤٦ في كتابه مروج الذهب فقد قال حين عرض لأخبار إرم ذات العماد « ان هذه أخبار موضوعة من خرافات مصنوعة نظمها من تقرب من الملوك برواياتها وان سبيلها سبيل الكتب المنقولة الينا والمترجمة لنا من الفارسية والهندية والرومية (وفي رواية أخرى الفلهوية بدل الهندية) مثل كتاب هزارأفسانه ، وتفسير ذلك بالفارسية خرافة ويقال لها (أفسانه) . والناس يسمون هذا الكتاب الف ليلة وهو خبر الملك والوزير وابنته وجاريتها شهرزاد ودنيا زاد » ثم جاء بعده محمد بن اسحق المعروف بابن النديم المتوفى سنة ٣٨٥ فقال في الفهرست: « اول من صنف الخرافات وجعل لها كتباً وأودعها الخزائن الفرس الاول ، ثم أغرق في ذلك ملوك الاشغانية وهم الطبقة الثالثة من ملوك الفرس وتقلته العرب الى اللغة العربية وتناوله الفصحاء والبلغاء فهذبوه ونمقوه وصنفوا في معناه ما يشبهه ، فأول كتاب عمل في هذا المعنى كتاب هزار أفسانه ومعناه الف خرافة .

وكان السبب في ذلك أن ملكاً من ملوكهم كان اذا تزوج امرأة وبات معها ليلة قتلها من الغد فتزوج بجارية من أولاد الملوك لها عقل ودراية يقال لها شهرزاد ، فلما حصلت معه ابتدأت تخرفه وتصل الحديث عند انقضاء الليل بما يحمل الملك على استبقائها ويسألها في الليلة الثانية عن تمام الحديث الى أن أتى عليها الف ليلة ٠٠٠٠ رُزقت في اثنائها منه ولداً أظهرته وأوقفت الملك على حيلتها عليه فاستعقلها ومال اليها واستبقاها ، وكان للملك قهرمانة يقال لها دنيا زاد فكانت موافقة لها على ذلك . وقد قيل ان هذا الكتاب ألف لحميا ابنة بهمن » .

ثم قال ابن النديم في موضع آخر : « والصحيح ان شاء الله ان اول من سمر بالليل الاسكندر وكان له قوم يضحكونه ويُخرفونه لا يريد بذلك اللذة وانما كان يريد الحفظ والحرس ، واستعمل لذلك بعده الملوك هزارافسانه ويحتوي على الف ليلة وعلى دون المائتي سمر لان السمر ربما حدث به في عدة ليال . وقد رأيته بتمامه دفعات ، وهو بالحقيقة كتاب غث بارد الحديث » .

فالرجلان كما ترون متفقان على ان الكتاب منقول عن هزار افسانه الفارسي وانه موضوع في خبر الملك والجاريتين شهرزاد ودنيازاد وان اسمه في عصرهما كان الف ليلة لا الف

ليلة وليلة « ولاعبرة بمجيء اسم الكتاب كاملاً في الطبعة الحديثة المصرية لمروج الذهب فان ذلك من زيادة المصحح » . ويختلفان في نسب البنت والجارية فيقول المسعودي ان شهرزاد بنت الوزير ودنيازاد جاريتها وهو الصحيح ، ويقول ابن النديم ان شهرزاد من أولاد الملوك وان دنيازاد قهرمانة الملك ، ويزيد ان الكتاب يحتوي على الف ليلة وعلى دون المائتي سمر وانه ألف لحيا أو هميا أو حماني أو حمانة أو جمانة أو خماني على اختلاف الروايات وهي بنت الملك بهمن بن اسفنديار .

هاتان هما الوثيقتان الخطيرتان في تاريخ هذا الكتاب ولا يوجد غيرهما فيما نشر علينا من كتب مؤرخينا القدماء اللهم الا إشارة الى وثيقة ثالثة مفقودة نقل عنها المقريزي في الخطط والمقري في نفح الطيب وعزواها لمؤرخ مصري اسمه القرطي الف كتاباً في تاريخ مصر على عهد الخليفة العاضد الفاطمي ذكر فيه الف ليلة وليلة وقايس بين قصصه وبين ما يتداوله الناس في عصره من الحكايات المشهورة . وفي هذا دليل على ان الكتاب على أي صورة من الصور كان معروفاً في مصر على عهد الفاطميين ، وان اسمه كان إذ ذاك الف ليلة وليلة ، وان عنصراً من القصص العربي قد دخل في هيكله . ثم تجاهله بعدئذ ادباؤنا ومؤرخونا فلم يحققوا مصدره ، ولم يسجلوا نموه وتطوره ، حتى جاء رأس المستشرقين البارون سلفستر دساسي ، فبدأ البحث العلمي في أصله بمقالين نشرهما في جريدة العلماء Journal des savants أولهما في سنة ١٨١٧ والآخر بعده باحدى عشرة سنة . وجملة رأيه أن الكتاب تأليف جماعة لا تأليف واحد ، وانه مؤلف في العهد الاخير ، وانه عربي الوضع من فاتحته الى خاتمته ، ودفع قول المسعودي ان فيه عناصر أجنبية من الهندية أو الفارسية . فناقش أدلته قوم آخرون أشهرهم الاستاذ (يوسف فون هامر) الالماني فقد نشر في سنة ١٨١٩ مقالاً في احدى المجلات الالمانية ، وفي سنة ١٨٢٣ مقالاً آخر في المجلة الاسيوية أيد فيهما رأي المسعودي تأييداً لا سبيل عليه لآخذ . وفي سنة ١٨٣٩ ترجم الاستاذ (وليم لين) الانجليزي قسماً من الف ليلة وليلة وقدم له مقدمة حاول ان يثبت فيها ان الكتاب تأليف رجل واحد وانه ألف فيما بين سنتي ١٤٧٥ و ١٥٢٥ للميلاد . ثم استأنف هذا البحث في هذا العصر طائفة من ثقات العلماء أشهرهم : گوجي وموللر ونولدكي واوستروب وكريمسكي وشوفان وكارادفو ، فاستجلوا على قدر إمكانهم ما غمض من أصل هذا الكتاب حتى أصبح

من الممكن بعد تمحيص ما قالوه وتصحيح ما جهلوه أن نثبت في هذا الأصل رأياً يقارب الصواب ان لم يكنه .

[أصل الكتاب وطبقاته] — أصل هذا الكتاب نواة من الأقاصيص الهندية والفارسية تسمى هزارافسانه ترجم الى العربية من الفهلوية في أواخر القرن الثالث للهجرة بعنوان « الف ليلة » وهو الذي رآه المسعودي وانتقده ابن النديم . ثم تجمع حول هذه النواة في الازمنة الواقعة بين القرن الرابع والقرن العاشر من الهجرة طبقتان طبقة بغدادية صغيرة وطبقة مصرية كبيرة . فأما النواة او الأصل او الاطار كما يسميه الباحثون فمؤلف من الحكايات الباقية الآتية : حكاية الملك شهريار وأخيه شاه زمان وهي مقدمة الكتاب وحكاية التاجر والجني ، وحكاية الصياد والجني ، وحكاية حسن البصري ، وحكاية الحصان الآبنوس ، وحكاية الامير باسم وجوهرة السمندلية ، وحكاية أردشير وحياة النفوس ، وحكاية قمر الزمان بن الملك شهرمان والأميرة بدور ، وحكاية سيف الملوك وبديعة الجمال .

وقد اختلفت كلمة الباحثين في أصل هذا الأصل كما ألمعنا الى ذلك من قبل ، ففريق يرى ورأيه الأرجح ان المقدمة وبعض حكايات الاصل هندية ويبني هذا الرأي على المشابهة في الموضوع والطريقة والأسلوب ، فأما المشابهة والموضوع فان في حكاية الملك شهريار واخيه مشابه من « كثاسارت ساجارا » الهندية . وأما المشابهة في الطريقة فان إدماج حكاية في حكاية وتوليد قصة من أخرى احدى خصائص الأدب القصصي الهندي وهي ملحوظة في قصة (مهابهاراته) و (بنجه تنتري) اصل كليلة ودمنة ، لان الباعث الاول على القصص في أدب الهند كان ابتاء الفرصة واكتساب الوقت حتى يؤفك المتهور عن عزمه ، ويحجز المتسرع عن وجهه ، كما فعل الببغاء مثلاً مع زوجة صاحبه في حكاية (سو كاسابتاتي) فقد كان يقص عليها كل يوم أحسن القصص ليعوقها بلهو الحديث عن زيارة خليلها في غيبة حليلها ويقطع حديثها دائماً بقوله : سأقص عليك البقية غداً اذا بقيت في البيت . وهذه الطريقة وذلك الباعث نجدهما في كثير من حكايات الف ليلة وليلة فلا نزاع إذن في انها هندية . وأما المشابهة في الأسلوب فان من لوازم القاص الهندي ان يقول : لاتفعل ذلك وإلا أصابك ما أصاب فلاناً فيسأله السامع و كيف ذلك فيجيب القاص على هذا السؤال برواية

القصة . وهذا الاسلوب نفسه مستعمل في تلك الحكايات من الف ليلة ، وقولهم فيها و كيف ذلك ؟ ترجمة حرفية لهذه الجملة السنسكريتية (كاثام إتات) ثم يمضي هذا الفريق في تطبيق نظريته على بعض الحكايات وينتهي الى ان هناك طائفة من الاقاصيص لاشك في انها فارسية وهي حكاية الحصان الابنوس وحكاية حسن البصري وحكاية سيف الملوك وبديعة الجمال وحكاية قمر الزمان والاميرة بدور وحكاية بدر باسم والاميرة جوهر السمندلية وحكاية أردشير وحياة النفوس .

وفريق آخر يرى ان الاصل كله فارسي تأثر بالعقائد اليهودية والاغريقية والاسلامية ويريد أحدهم وهو الاستاذ گوجي ان يجعل بين هيكل الف ليلة وليلة وبين قصة استر اليهودية صلة ونسبة . ذلك لان ابن النديم في الفهرست يقول ان هزار افسانه ألف لحميا بنت بهمن ، والطبري يقول ان استر هي زوج بهمن ، والمسعودي يجعل استر زوجة بختنصر ويسميها دنيازاد ، ثم يطلق اسم شهرزاد ايضاً على أم حميا بنت بهمن اي على زوجة بهمن وهي التي سماها الطبري استر . ويقول المسعودي ايضاً في موضع آخر ان أم حميا يهودية ، ويعود الفردوسي والطبري والمسعودي فيطلقون اسم شهرزاد على حميا نفسها وهي بنت الملك بهمن وزوجه على عادة الفرس الاولين . اما وجه الشبه بين قصة استر المذكورة في التوراة وبين مقدمة الف ليلة فهو أن الملك أسريوس كان كالملك شهريار لا يرى المرأة الا ليلة واحدة ، فتزف اليه البكر مساء ليطردها من قصره صباحاً دون ان يقتلها كما يفعل شهريار واستر كانت كشهرزاد تستهوي الملك وتخلب لبه فيستبقيها ، وهي بنت الوزير وشهرزاد بنت الوزير ، وهي تغرر بنفسها لتنقذ بنات جنسها من شر الفضيحة والذل ، وشهرزاد تفعل ذلك الفعل لتدرأ عن بنات قومها خطر السباء والقتل .

أما علة هذه الآراء المتناكرة التي تجعل هذا الاصل عربياً بحتاً اوفارسياً بحتاً اوهندياً مشوباً — فهي ان القصاص العرب قد عبثوا به عبثاً شديداً فبدلوا أسماءه وغيروا أسلوبه وموهوا لونه واخترعوا بعضه وطبعوه بطابع اسلامي محض ثم بعثروه في جوانب الكتاب وثنايا القصص حتى التاث على المقاييس الفذة فرزه وتحديده .

واما الطبقة البغدادية فتتألف من أقاصيص غرامية صغيرة انتزعت من حياة العرب واتسمت بسمة الاسلام وفاضت بنعيم الحب والترف . تمثل حياة الطبقة الوسطى باسلوب

صحيح عذب وتصور حضارة بغداد في ايام العروس [١] بخيال قوي خصب ، وتشهدكم سورة الغنى في الأسواق ، وضجة الغلمان في الافنية ، وقصف الجواري في المقاصير ، ومداعبة الزوارق اللاهية في دجلة ، وتجعل من الخليفة الرشيد ملاك رحمة ورسول عناية يجيء متنكراً وظاهراً في كل مكان بالثروة للمحروم والعدل للمظلوم والوصل للعاشق البائس . ولا أقصد بذلك الى أن كل حكاية يتدخل فيها الرشيد تكون بغدادية ، فان افتتان الناس بمجده ، وازدهار العراق في عهده ، جعلاه رمزاً للرخاء والعدل حتى في زمن غير زمنه ووطن غير وطنه .

تجمعت هذه الطبقة في مدى القرنين الرابع والخامس مما أثر عن الرواة ودون في الكتب مستقلاً وغير مستقل . فهي على ما أرجح بقايا القصص التي نشرها الادباء البغداديون ثم طواها الزمن ، وقد عد ابن النديم في الفهرست عشرات منها كقصة علي بن ادم ومنهلة ، وقصة عمرو بن صالح وقصاف ، وقصة ابي العتاهية وعتب ، وقصة وضاح وأم البنين ، وقصة احمد بن قتيبة وبانوجة ، وقصة ريحانة وقرنفل وقصة سكينة و لرباب الخ ...

وأشهر حكايات هذه الطبقة حكاية علي بن بكار وشمس النهار ، وهي قصة شهيدين من شهداء الحب تثير النفوس حرقة الأسى على جدثهما العاثر ونهايتهما المحزنة ، وتدصيفت في أسلوب رقيق وعبارة مهذبة واشتملت على نوع من الأدب بكاد يخلو منه أدب العامة وهو الرسائل الغرامية التي تجري بين العاشقين اذا عز اللقاء وعيل الصبر . ثم حكاية أنس الوجود وورد الأكمام وهي نظمة حب وشعر وغزل . تجدون من فيها : اما محباً أو حبيباً أو واصلاً بينهما ، والشعر الذي نفثته انما أنشئ لها خاصة فهو مطابق لمقتضى أحوالها ، مشتمل على أسماء أبطالها ، وذلك قليل في سائر الكتاب كقوله من أبيات :

ما خاب من سماك أنس الوجود يا جامعاً ما بين أنس وجود

يا طلعة البدر الذي وجهه قد نوّر الدنيا وعم الوجود

ثم حكاية البنات الثلاث مع الحمال والصعاليك الثلاثة . ثم حكاية النائم اليقظان أو أبي الحسن الخليع . ثم حكاية بدور وجبير بن عمير الشيباني . ثم حكاية الرشيد مع الخليفة الثاني محمد بن علي الجوهري . ثم حكاية المعتضد مع ابي الحسن الخراساني وهي تدور

(١) ايام العروس اسم كان يطلقه البغداديون على عصر الرشيد . (المسعودي)

على السرف والترف والحب وتقص علينا مصرع المتوكل . ثم حكاية الشاب البغدادي مع جاريته . ثم حكاية الجواري الضرائر . ثم حكايات السندباد البحري وهي وصف جذاب شائق لسبع سفرات مخطرات في مياه الهند والصين قام بهن السندباد في عهد بلغت فيه بغداد والبصرة غاية لم تدرك يومئذ في العمران والعظمة .

ومما لاجدال فيه أنها كانت في الاصل رحلة حقيقية شوهها الناس بالمبالغة ، وزيفها القصاص بالافتعال والتزيد ، ولعل صاحبها هو الذي نحا بها هذا المنحى من الاغراب كما فعل بزرك بن شهريار في كتابه عجائب الهند . فلوصفيناها من سخف الأساطير وصرف الحديث كالسمكة العملاق التي يظنها الملاحون جزيرة ، وبيضة الرخ التي يحسبها الراؤن قبة إذن لتكشفت عن تفاصيل دقيقة تطابق ما كتبه الرحالون في هذا الموضوع كوصف جزر المهراجا أوالمهرجان كما يسميه السندباد ، والبحث عن الماس بواسطة النسور في سيلان ، وماذكر عن الفيل والكركدن وشجر الكافور وتجارة القرنفل الخ ...

وأصدق ما في حكايات السندباد تصويرها لنفسية الرحالة الذي يشغف قلبه حب الأسفار ومصارعة الأخطار وجهاً لوجه ، فهو في كل سفرة يخوض غمرات الهول ويكابد غصص الغرق ويأخذ على نفسه الموثق الغليظ الا يزمع رحلة بعد هذه المرة . فاذا ماعاد سالماً غانماً الى دياره ، ونعم حيناً بالعيش الرخي بين ندماء وسماره ، عاده الوله الشديد الى البحر الغادر ، ونازعته نفسه الطامعة الى الأفق البعيد ، فيجتوي الراحة ، ويعاف النعيم ، ويبتاع البضائع ، ويكتري السفينة ، ثم يقلع من البصرة !!

واما الطبقة المصرية فهي أوسع الطبقات وأجمها وأصلحها للبحث وأصدقها في اللهجة وأقلها في البلاغة . تألفت في مدى خمسة قرون بين القرن الخامس والقرن العاشر من القصص العربية والتقاليد الاسلامية والسير اليهودية والاساطير الفرعونية . وقد قسمتها حين حللتها الى طبقتين قديمة تنتهي بالقرن الثامن وحديثة تنتهي بالقرن العاشر . فالطبقة القديمة حسنة الأسلوب مطردة السياق شريفة الغرض تدور على المغامرة والحرب ، وتعارض الأخلاق وتضارب العواطف ، وتعتمد على الطلاسم والأرصاد والجن والسحر والقدر كحكاية جودر التاجر وإخوته ، وحكاية الوزيرين نور الدين وشمس الدين ، وحكاية مسرور وزين المواصف ، وحكاية قمر الزمان الثانية ، وحكاية الخياط والأحدب ، وحكاية مزين

بغداد وهي قطعة فنية قوية رائعة ، ثم حكاية علي شار او بشار معزمرد . والطبقة الحديثة على الجملة عامية اللغة ركيكة الأسلوب جريئة العبارة تدور تارة على حيل المحتالين ومكايد العيارين ومخاطر اللصوص ، وتارة على تصوير الأخلاق وتذكير النفوس الغافلة بالعبر . وظهور القصص المحتال الشاعر بجانب القصص المتصوف الزاهد في هذه الطبقة — إنما اقتضته طبيعة المجتمع المصري يومئذ من اتجاه فريق من الناس الى الله وانصراف فريق آخر الى الشيطان . وقد كان من الممكن ان تبدو هذه الظاهرة ايضاً في قصص بغداد لولا ان مغامرات اللهو والحب فيها قد نابت في نفوس القصصيين على كل شيء وهم الى ذلك كتاب يتأبون عن حياة العامة . فقد كان في بغداد على عهد الخليفة المعتضد بالله رجل اسمه العقاب وكنيته ابو الباز شهر بالكيد والحيلة حتى قال فيه المسعودي في الجزء الثاني من مروج الذهب ص٤٧٩ من طبعة مصر « أنه برز في مكائده وماأورده من حيله على دالة المحتالة وغيرها من سائر المكارين والمحتالين ممن سلف وخلف منهم » ثم ذكر بعض حوادثه وهي غريبة .

وكان في بغداد كما كان في القاهرة نظام (التوابين) وهم اللصوص الذين اذا أتعدهم الكبر عن السرقة تابوا ورسمهم الخليفة شيوخاً لأصناف اللصوص فاذا حدثت حادثة عرفوا فعل من هي . ذكر ذلك المسعودي ايضاً في ص٤٧٣ من الجزء نفسه وكانت بغداد والقاهرة تتبادلان هذا الصنف من ازعماء والشيوخ كما يقصه علينا الف ليلة وليلة .

تأثر القصاصون المصريون في حكايات الحيل إذن بطبيعة العمران فضلاً عن تأثرهم بمابقي مذكوراً على بعض الألسنة من أساطير العهود الفرعونية ، فان قصة علي بابا واللصوص الاربعين مثلاً تشبه قصة وردت في (كتاب الأقاصيص الشعبية في مصر القديمة) لكبير الأثريين الاستاذ (ماسبيرو) . ثم تأثروا في أقاصيص العبر والعظات بالاسرائيليات كحكاية مدينة النحاس وقصة حاسب كريم الدين وبلوقيا وجانشاه ، وذلك مادعا الاستاذ (فكتور شوفان) الى ان يقول ان القصص المصرية الاخيرة إنما وضعها يهودي مصري أسلم ، وذلك بالطبع وهم من الاستاذ لان علم العرب بالاسرائيليات منذ ظهر الاسلام لايقل عن علم اليهود بها .

وأشهر أقاصيص هذه الطبقة حكاية علي بابا واللصوص الاربعين ، وحكاية علاء الدين

ابي الشامات والمصباح العجيب ، وهي التي اقتبسوا منها لص بغداد للسينما ، ثم حكاية معروف الاسكاف ، وحكاية ابي قير وابي صير ، وقصة حاسب كريم الدين وملكة الحيات وقصة مدينة النحاس ، وحكايات احمد الدنف وحسن شومان وعلي الزيبق ودليلة المحتالة وزينب النصابة ، وحكاية الملك الناصر والولاة الثلاثة ، وحكاية الرجل الصعيدي وامرأته الافرنكية .

وفوق هذه الطبقات الثلاث أو الاربع تراكم في العصور الحديثة عدد من القصص الكبيرة والأقاصيص الصغيرة ليبلغ الكتاب الغاية التي حددها له اسمه . وفي هذه الزيادة تختلف النسخ اختلافاً شديداً . من تلك القصص طائفة حائلة اللون من أثر التقليد كقصة عجيب وغريب وسيرة الليل وهي من قصص البطولة والحرب تستعر وقائعها في العراق بين العرب والعجم أو بين دين الحنيفية والمجوسية ، وتستعير صورها من قصة عنترة وسيرة ابن ذي يزن ، ثم قصة عمر النعمان وأولاده وهي مضروبة على قالب أردشير وحياة النفوس ، ثم قصة تاج الملوك والاميرة دنيا وهي كسابقتها تقليد لقصة أردشير ، ثم حكاية جانشاه وهي تقليد سخيف لحكاية حسن البصري ، ثم حكاية وردخان والملك جليعاد وهي ملفقة من أمثال كليلة ودمنة .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وطائفة أخرى يغلب فيها أثر التجديد كحكاية هكتار الحكيم ، وأقصوصة شول وشمول ، وحكاية الجارية تودد وهي حكاية ثقافية تعليمية كتبها فقيه مصري في العهد الأحدث على الرغم من وقوع الحادثة ببغداد ، وقيام المناظرة برياسة النظام المتكلم في مجلس الرشيد ، فان الجارية كانت تجيب السائل في الفقه على المذهب الشافعي وتصرح بذلك ، وتذكر في التقويم الزراعي الشهور القبطية ككيهك وبرموده وبشنس ومسرى وأمشير ، ثم تقول في حضرة الرشيد : الويل ثم الويل لمصر والشام من جور السلطان . ومن الغريب ان الاستاذ اوستروب يقول في دائرة المعارف الاسلامية ان هذه القصة نشرت في اسبانيا بعنوان (لادزن زلا تيودور) أو تودور . ويظن ان تودد تصحيف تودور . ولم يتح لي الاطلاع على هذه القصة لارى كيف تتفق مع قصة كل ما فيها مناظرة في علوم الثقافة الاسلامية البحتة .

وهناك عدا ما ذكرت مجموعة من أقاصيص الفرسان والاجواد ونوادر الاولياء والزهاد

نقلت من العقد الفريد والمستطرف وعروس المجالس ومناقب الصالحين لم يقصد بها الا توسيع الكتاب .

[مؤلف الكتاب وزمن تأليفه وسبب تسميته] — ذهبت جهود الباحثين باطلاً في تحقيق هوية المؤلف ، لان هذا افسانه نقل الى العربية غفلاً لم يسم واضعه ، ثم غشيته الطبقتان البغدادية والمصرية على التدريج ، فكان كل قصاص يكتب لنفسه ماسمع وجمع في عصره من ثمرات القرائح وقطرات الأقلام دون ان يسندها الى راو اويعزوها الى مؤلف . ولماذا يفعل ذلك وهو يريد ان يحفظ ويقص لا أن يروي وينشر ! فلما هيأت الاحوال أسباب تدوينها في العهد الذي ذكرناه قيض الله لها من ضم شتات الفتها ونسق نظام وحدتها ثم دونها على هذه الصورة . ولم يستطع ذلك الجندي المجهول ان يعلي اسمه على الخلود ، إما لتواضع فيه حمله على إنكار ذاته ، وإما لتواطؤ من النكران والنسيان أمات اسمه بعد مماته ، ومن التوافق الغريب ان أسماء الكتاب الذين وضعوا القصص الفرنسوية الكبيرة في العهد الذي دون فيه الف ليلة وليلة قد سحب النسيان عليها ذيله كذلك ، كأغاني رولان وقصص المائدة المستديرة وقصص الحكماء السبعة مثلاً .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وقد اختلف العلماء في أن يكون المؤلف واحداً أوجماعة ولست أرى لهذا الخلاف وجهاً فان الكتاب تكون على اليقين من أعمال مستقلة ثم نما بالاتفاق على توالي الحقب ، فوضعه وتكوينه إذن عمل جمع ، وجمعه وتدوينه عمل فرد ، وتحليله الى الاعمال الفردية المتعاقبة أمر فوق القدرة ومن وراء الإمكان . أما التاريخ الذي قرّ فيه على هذا الوضع الأخير فهو النصف الاول من القرن العاشر من تاريخنا ، ومن الممكن ان نحصره منه في السنوات العشر الواقعة بين سنتي ٩٢٣ و٩٣٣ وهما توافقان سنتي ١٥١٧ و١٥٢٦ من التاريخ المسيحي . وقد حصره الاستاذ وليم لين الانجليزي بين سنتي ١٤٧٥ و١٥٣٥ للميلاد اي في مدى خمسين سنة فوافقناه في الغاية وخالفناه في البدء ، ولم نر هذا الرأي اعتباطاً من جهة ، ولا استنباطاً من النص الظني من جهة أخرى ، وانما اعتمدنا في تحقيقه على دليل مادي دعو ان الاستاذ الفرنسي (جلان) قد أخذ بنشر ترجمة الكتاب لبلاط الملك لويس الرابع عشر سنة ١٧٠٤ وقد نقله عن نسخة عربية مخطوطة في ثلاثة مجلدات أرسلت اليه من سورية بعد سنة ١٧٠٠ وهي مكتوبة بمصر غفلاً من التاريخ ، ولكن الذي نقلها الى الشام وهو من

طرابلس كتب عليها بخطه انه امتلكها سنة ٩٤٣ للهجرة ثم انتقلت من يده الى يد آخر من حلب فكتب عليها ايضاً تاريخ هذا الانتقال وهو سنة ١٠٠١ فيكون تأليف الكتاب إذن قد تم قبل سنة ٩٤٣ بزمن نقدره كما قدره (لين) بعشر سنين .

هذا من جهة الطرف الاعلى اما من جهة الطرف الادنى فانا نجد ذكر القهوة المعروفة يتردد في بعض الحكايات كحكاية ابي صير وابي قير وحكاية علي نور الدين ومريم الزنارية مثلاً وذلك لا يكون قبل العقد الاول من القرن العاشر لان القهوة لم تنتشر في الشرق الا في هذه المدة ، ثم نجد لفظ الباب العالي وبعض النظم العثمانية تذكر من حكايات أخرى كحكاية معروف الاسكاف وهي مصرية قطعاً والعثمانيون لم يستولوا على مصر قبل سنة ٩٢٣ فيكون الكتاب إذن قد دوّن بعد هذه السنة وقبل سنة ٩٣٣ .

ذلك تحقيق الزمن الذي صنف فيه الكتاب جملة ، اما تحديد التاريخ لكل حكاية وكل طبقة فذلك عمل ان تيسر في حكاية تعذر في أخرى ، وبعض الباحثين قد حاول ذلك في شيء من التوفيق كالاستاذ وليم بوبر الامريكي فانه نشر سنة ١٩٢٤ بحثاً في ٤٤ صفحة من المجلة الاسيوية جزم فيه بان حكاية الوزير بن شمس الدين ونور الدين قد كتبت بعد حكم الظاهر بيبرس أي بعد سنة ٦٧٦ ويرجح انها كتبت سنة ٧٠٦ وان قصة الخياط والاحدب بما تشتمل عليه من الحكايات الاخرى كمزين بغداد قد ألفت سنة ٨١٩ للهجرة والدخول في هذا الموضوع يخرج بنا الى التفصيل الذي يمكّ في الروح ويجمد نشاط الحديث .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

سمى العرب هزار افسانه الف ليلة ولو أرادوا الترجمة الامينة لقالوا الف خرافة أو أسطورة ، فعدولهم عن العنوان الصحيح يدلنا على أحد أمرين : إما ان الليلة كانت في اصطلاحهم ترادف الاسطورة باعتبارها زمناً لها وذلك ما نستطيع استنباطه من قول محمد ابن اسحق الوراق : « ابتدأ ابو عبدالله الجهشياري صاحب كتاب الوزراء بتأليف كتاب اختار فيه الف سمر من أسمار العرب والعجم والروم وغيرهم كل جزء قائم بذاته لا يتعلق بغيره وأحضر المسامرين فأخذ منهم أحسن مايعرفون ويحسنون ، واختار من الكتب المصنفة في الأسمار والخرافات مايحلى بنفسه .. فاجتمع له من ذلك اربعمائة ليلة وثمانون ليلة كل ليلة سمر تام يحتوي على خمسين ورقة وأقل وأكثر ، ثم عاجلته المنية قبل استيفاء ما في نفسه من تتميمه الف سمر ... » وإما ان يكون عدد الالف في الاصل انما أريد به التكثير

لاالتحديد على حد قوله تعالى : « ان تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم » وأحر به ان يكون كذلك فان ابن النديم قد رآه بتمامه مراراً وقال ان فيه دون المائتي سمر وهو اليوم بطبقاته وزياداته واستطراداته لا يتجاوز ٢٦٤ حكاية قسمها المؤلف على الف ليلة وليلة تقسيماً فيه عبث الهزل أو سخف الصناعة فان شهرزاد يدر كها الصباح دائماً ولما يمض على حديثها غير بضع دقائق على انه لم يبق مما رآه ابن النديم الا تلك الحكايات التي سردناها عندما تحدثنا عن الأصل ٠

إما زيادة الليلة على الالف فمن عمل القرن السادس لان النسخة التي رآها القرطي بمصر على عهد الخليفة العاضد الفاطمي كانت تحمل اسم الف ليلة وليلة ٠ ويقول (جلدمستر) في تعليل زيادة الليلة ان العرب يطيرون بالأعداد الزوجية وهو زعم غريب ما رأيت في تاريخنا ولا في أدبنا مايؤيده ٠ ولقد ظل الكتاب اكثر من قرنين يسمى الف ليلة وكان الجهشياري يريد أن يسمي كتابه الف سمر وعندنا الفية ابن معطي والفية ابن مالك ، وأغرب من هذا الزعم ان يؤيده اوستروب في دائرة المعارف ويزيد عليه ان ميل الناس في تلك العصور الى التسجيع في عناوين الكتب كان من البواعث ايضاً على هذه التسمية ! وليس في قولنا الف ليلة وليلة كما تعلمون تسجيع ولا مزاوجة ٠ والغالب في رأيي أن الليلة انما زيدت فوق الالف لافادة الكمال كطفحة الإناء ورجحة الميزان ، لان الالف عدد تام بالنسبة الى هذا الكتاب فاذا زيد عليه الواحد كان كاملاً ٠ والكمال درجة فوق التمام ، وان في لغة التخاطب مايشبه ذلك فقد يقال في المن: قضيت لك الف حاجة وحاجة وفي المبالغة زرتك الف مرة ومرة وهلم جرا ٠

« للبحث صلة »

احمد حسن الزيات
عضو المجمع العلمي العربي

رحلة اوليا جلبي

« في البلاد العربية »

—«»—

تمهيد ٠ — محمد ظلي افندي المعروف باوليا جلبي اي الولي الفاضل سائح تركي شهير من رجال القرن الحادي عشر الهجري (ولد في سنة ١٠٢٠ وتوفي في سنة ١٠٩٠) زار أكثر الامصار التي كانت تتألف منها السلطنة العثمانية المترامية الاطراف في ذلك العهد ووضع في وصف رحلاته العديدة بضعة مجلدات لم يطبع منها الا القليل وهي تعد عند الترك من الآثار القيمة لما تضمنته من بيان عمران البقاع والبلدان التي شاهدها ووصف مناظرها ومبانيها وأحوال سكانها وصفاً لا بأس فيه تتخلله طائفة من النبذ الجغرافية والتاريخية والاجتماعية لولا أن فيها شيئاً غير يسير من شوائب المبالغة والاحاديث الخرافية وذكر الاضرحة والكرامات التي كان يهتم الجلبي بها كثيراً شأن رجال تلك الايام ٠

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

قيل ان اوليا جلبي لم يوفق في صباه في تلقي العلوم وان جمال صوته ساقه للولع بفنون الادب والموسيقى الى ان كان ذات يوم في رمضان سنة ١٠٤٥ يتلو القرآن في جامع ايا صوفيا فأعجب السلطان مراد الرابع بصوته ورفعه الى قصره وجعله من ندمائه ٠ الا أن تلك الابهة والنعمة اللتين صادفهما أوليا جلبي في القصر كانتا محاطتين بضروب التقييد والحصر ٠ فلم تروقا لعينيه ولم تتفقا

مع خفته وظرفه وحبه للحرية والانطلاق وشغفه بالسفر وجوب الآفاق . فغادر القصر بعد مكوث سنتين وراح يجول في الامصار تارةً منفرداً وتارةً مع كبار الوزراء والقواد لاسيما مع خاله ملك احمد باشا احد صدور ذلك العهد البارزين . ورافق أهم الجيوش التي ساقتها الدولة العثمانية إذذاك في الشرق والغرب وحضر الحروب ووصفها وبهذا تسنى له ان يرى اكثر بلاد الاناضول والروم ايلي ووصل الى جزيرة كريت وجال ايضاً في أجزاء بعض ايران والقفقاس وجنوبي روسية ومولداويا وترانسلفانيا ودالماتزيا وهنغاريا والنمسا والمانيا وهولاندة .

وقد زار هـذه البلاد الاوربية وهو في بطانة السفير العثماني المرسل الى هولاندة . ولم تفته من البلاد العربية الشام ومصر والحجاز . جاء مرة الى دمشق صحبة مرتضى باشا المعين نائباً على الشام وذهب مرة أخرى معه لما جرد جنده لجباية الاموال الاميرية من الدروز وغيرهم في جنوبي جبل لبنان وجبل الجليل وأرسله الباشا في غيرها بمهمة الى غزة فمر باكثر مدن الشام الشمالية والجنوبية وعرفها ووصفها . وقد استرعت رحلة هذا السائح التركي أنظار علماء المشرقيات في اوربا فترجموا منها مايختص ببلادهم الى اللغات الالمانية والانكليزية والمجرية . لذلك أحببت ان أحذو حذوهم فأنقل الى لغتنا وصف البلاد العربية التي زارها لحسباني ان في ذلك ما يفيد معرفته من الأوضاع الجغرافية والحالات الاجتماعيـة التي كانت قبل ثلاثة قرون . وقد تصرفت في عبارة الجلبي وحذفت منها ماليس في ذكره نفع وعلقت عليها نبذاً في ترجمة

الاشخاص وذكر أسماء المدن والقرى التي كانت في طريقه اوحولها مما فاته بيانه ووصفت منها بعض ما آنسني في زيارته ورؤيته أو العثور على ذكره في الكتب الجغرافية والتاريخية والرحلات القديمة والحديثة وعنيت بسرد الفرق بين حالتها حينما مرّ بها الجلبي وحالتها الحاضرة ليكون ذلك تكملة لهذه الرحلة واقتداء بما يكتبه مؤلفو كتب الأدلة للسائحين في بلادنا كايزامير وشوفه وموغارسه وبيديكر وغيرهم من أفاضل الفرنج الذين لم يقتف أثرهم احد من كتابنا بعد حتى أصبح هؤلاء الغربيون الغرباء يعرفون بلادنا ومسالكها وخططها ومصانعها وعاداتها وحالات أهلها وطبائعهم معرفة تامة ليس لا كثرمفكرينا نصيب منها وماذلك الا لوفرة ما عندهم من هذه الكتب وأشباهها وفقدانها لدينا بالكلية ·

وقبل الشروع بسرد الرحلة لابد من التنويه بان المحبي صاحب خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر وقد ترجم كثيراً من فضلاء الترك وأعيانهم في ذلك العهد لم يذكر اسم أولياجلبي على الرغم من ان هذا جاء الشام وساح فيها ومكث في دمشق مدة ولم يترجم ايضاً مرتضى باشا الذي جاء الجلبي في حاشيته وظل والياً في دمشق نحو سنة وقد تحريت فلم أعثر على ذكر هذا الوزير الا عرضاً في صدد ترجمة عبدالسلام المرعشي احد أعيان الجند بالشام وصاحب الحول والطول في ذلك العهد · قال المحبي : وكان عبدالسلام لما وجهت نيابة الشام لمرتضى باشا الكرجي ثانية في سنة سبع وستين وألف وتصرف بها متسلمه اضطرب لذلك اضطراباً شديداً لما كان قد وقع له من المعاداة في توليته الاولى فأخذ يدبر أشياء لمدافعته ثم أداه اجتهاده الى ان جمع جمعاً عظيماً في الجامع

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

الأموي وأحضر أكثر اهل البلدة وذكر لهم ظلمه وأشار عليهم بان لا يرضوه حاكماً عليهم وكان نائب الشام السابق المعروف بالسلاحدار لم يخرج بعد من دمشق وكان مقيماً بالميدان الاخضر فذهب القوم اليه وأبرموا عليه ان يبقى نائباً وكتبوا في هذا الشأن عروضاً ومحاضر وأرسلوها الى الابواب السلطانية وخرج متسلم مرتضى باشا هارباً ولما وصل اليه وهو في الطريق ارسل الى الباب السلطاني يعلمهم بما وقع فقرر في نيابة الشام بخط شريف فلم يمكنوه واظهروا الممانعة وجمعوا جمعاً عظيماً من أوباش الشام وعزموا على محاربته وطلعوا الى قرية دوما وهم في جيش عرمرم وكان مرتضى باشا وصل الى القطيفة فلما سمع بخبرهم ولى راجعاً ولم يدخل دمشق » اهـ . فيظهر من هذا ان مرتضى باشا عين لنيابة الشام مرتين الاولى في سنة ١٠٥٨ حينما جاء معه أولياجلبي ودخل بموكب عظيم واستقبلته جنود دمشق وأعيانها استقبالاً فخماً كما سيأتي ذكره . على ان هذا الباشا كان على ما يظهر جباراً عاتياً فعزل بعد سنة لكنه عاد للمرة الثانية في سنة ١٠٦٧ فلم ترض به جنود دمشق وأهلها واضطروه للرجوع فنقمت الدولة بسبب ذلك على عبد السلام المذكور ورفقائه الذين قادوا هذه الفتنة وكان من جملتهم الامير منصور الشهابي وابن عمه الامير علي فقتلتهم جميعهم تباعاً وصادرت أموالهم وأملاكهم وفاقاً لعوائد تلك الايام .

أما الرحلة فهي كما يأتي :

كان أولياجلبي يتدبر قضاء فريضة الحج فانتهز فرصة سفر مرتضى باشا المعين نائباً على الشام فالتحق بقافلة الباشا المؤلفة من مئات الحواشي والاتباع

والجند والوف الركائب والبغال المثقلة بالعتاد والامتعة وغادر مدينة اسكدار في غاية شهر شعبان سنة ١٠٥٨ (١) وراح يتنقل مع تلك القافلة في بلاد الاناضول كأزنيق واسكي شهر وآق شهر وقونيـة وآذنة ومسيس « المصيصة » وغيرها الى أن أشرف على خليج الاسكندرونة وسار موازياً شـاطئ البحر الرومي فوصل الى «يـﺋاس» وهي الآن آخر بليدة تركية متاخمة لبلاد الشام الحالية(٢) .

(١) في هذه السنة جلس السلطان محمد خان الرابع على كرسي آل عثمان وهو صبي ابن سبع سنوات .

(٢) قال ياقوت في معجم البلدان : بيّاس مدينة صغيرة شرقي انطاكية وغربي المصيصة «وصحيحه انها شمالي انطاكية وجنوبي المصيصة» بينها قريبة من البحر بينها وبين الاسكندرية «وصحيحه الاسكندرونة» فرسخان قريبة من جبل اللكام . قال البحتري :

ولقد ركبت البحر في أمواله ... وركبت هول الليل في بيّاس
وقطعت أطوال البلاد وعرضها ... ما بين سنداب وبين ريجاس

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

والى الشمال الشرقي من بيّاس الكنيسة السوداء والهارونية نسبة الى هرون الرشيد الذي اختطها وكانتا من الثغور في طرف جبل اللكام قاله ياقوت الحموي في المشترك . وكذلك كان في هذه الكورة التي تدعى قيليقية التابعة الآن لجمهورية تركية قلاع عديدة ذكرت مراراً في التاريخ الاسلامي كانت تتعاورها أيدي المسلمين والأرمن والروم في حروبهم وغاراتهم مدة قرون الى ان ثبتت في يد الترك ذكرمنها ابوالفداء في تقويم البلدان أسماء سيس التي كانت عاصمة ملك الارمن والمصيصة «مسيس» على جانب نهر جيحان بناها ابوجعفر المنصور واياس على الساحل وبرس برت شمالي سيس وتل حمدون بالقرب من جيحان وفي شرقي هذا التل حصن حموص ومرفند كار وفي شمالي جيحان عين زربة «آناوارزا» هذا عدا عن آذنة وطرسوس وهذه على مقربة من الثغور أو الدربندات في جبال طوروس التي كانت تفصل بين المسلمين والروم . وهذه البلاد كان يدعوها المسلمون الثغور ثم دعوها ببلاد ابن لأون ملك الارمن . وقد تغيرت اسماء اكثر هذه القلاع الآن واصبحت تعرف باسماء تركية كطوپراق قلعة وييلان قلعة وقرەسيس قلعة الخ .

وقد وصف قلعة ييَّاس ودورها وبساتينها ودارمكسها وميناءها وخانها وجامعها الذي بناه محمد باشا الصوقوللي الصدر الاعظم الشهير وأثنى على اهلها لانهم كانوا يردون عادية قرصان البحر ويحرسون المسالك والمضائق الممتدة شمالي ييـاس وجنوبها من شر لصوص الجبال ويسهلون سبيل الحجاج والتجار المارين ببلدتهم من بر الترك الى بر الشام وبالعكس ونوّه بشدة حرها في الصيف ورداءة هوائها واضطرار أهلها الى الاصطياف في النجود والهضاب المحيطة بهم وذكر ان الوفاً من الاكراد والتركمان أصحاب قطعان الغنم والماعز يتسلقون هذه النجود في فصل الصيف ويطلقون مواشيهم ترعى أعشابها الغضة وتشرب مياهها النميرة(١) .

(١) هذه نجود جبل اللكام الذي يدعوه الافرنج آمانوس وعامة الترك كاورطاغي ودعته حكومتهم جبل البركات ، وسلسلة اللكام تعد عند اكثر الجغرافيين التخم الطبيعي بين الشام والاناضول ويمر الآن في وسطها من الغرب الى الشرق الحد الذي اعتبر رسمياً بين جمهورية تركيا وبلاد الشام الواقعة تحت الانتداب الافرنسي ، وهي تنفصل في الشمال عن جبال مرعش وسيس بنهر جيحان وتتجه بخط مستقيم الى الجنوب حتى مضيق بيلان الذي يفصلها عن جبل الاحمر الممتد شمالي انطاكية وغربيها ، وفي هذه السلسلة الشامخة أودية ووهاد سحيقة ونجود ومرابع عالية صالحة للاصطياف ورعي الماشية لجودة هوائها وغزارة مياهها وروعة مشاهدها وطيب أعشابها ووفرة حراجها مما لانظير له في لبنان أو غيره ، وفيها قمم شاهقة أعلاها الصخرة البيضاء (آق قيا) ٢٥٠٠ متر ومغبر ادموغر ٢٢٦٧ متراً يجللها الثلج في معظم أيام السنة وتشرفان على سهول حلب وأذنة على السواء ، وفيها مضائق كانت تعبرمنها في العصور الغابرة جيوش الغزاة والفاتحين من الشمال الى الجنوب وبالعكس ، وكان القدماء ولاسيما الارمن أقاموا في النقاط الحاكمة على هذه المضائق الوعرة قلاعاً كانوا يشحنونها بالمقاتلة لمنع الاعداء من المرور ، منها في الشمال وفي منتصف الجبال « قلعة حجر

قال اوليا جلبي : وبعد ان مكثنا في بياس يومين غادرناها واجتزنا في جنوبها جسراً متقن الصنع ذا أربع منافذ من آثار محمد باشا الصوقوللي ووجدنا في قربه على شاطيء البحر تكية باسم الشيخ عبدالقادر الكيلاني دائرة الار كان

شغلان» صعبة المرتقى تشبه عش النسر بمنعتها ورفعتها تعلو عن سطح البحر ١٢٥٠ متراً ومثلها في الشمال وعلى مقربة من اسكندرونة «قلعة المركز» وفي الشرق على حاشية سهل العمق «قلعة دربساك» ومثلها في الجنوب «قلعة بغراس» . ولما جاء الصليبيون استولوا على هذه القلاع وأقاموا فيها الفرسان الهيكليين وظلت تتعاورها أيدي الارمن والروم وصليبيو انطاكية الذين لم ينفكوا يتنازعون أمرها فيما بينهم كما ان المسلمين في عهد بني حمدان وبني أيوب والمماليك لم يتوانوا عن مهاجمتها حينما كانوا يغزون بلاد الارمن والروم ويقابلهم هؤلاء بالمثل فيتخذ كل منهم هذه القلاع نقاطاً للاستناد عند زحفه شمالاً أوجنوباً وظل هذا الأخذ والرد مستمراً الى ان جهز الملك الظاهر بيبرس في سنة ٦٦٤ هـ جيشاً لغزو سيس قاعدة بلاد الارمن اذذاك وولى قيادة هذا الجيش الملك المنصور ناصر الدين محمد بن الملك المظفر محمود صاحب حماة فجاء فاستولى على هذه القلاع وأباد الفرسان المرابطين فيها ودمرها ثم أتم غارته على سيس وحواليها ورجع ظافراً . هذا وكان جبل اللكام في اول عهد الاسلام موطناً لقوم عرفوا «في كتب العرب بالجراجمة نسبة لمدينة جرجومة عند معدن الزاج فيما بين بياس وبوقة قرب انطاكية وقد صالح الجراجمة المسلمين على ان يكونوا أعواناً لهم وعيوناً ومسالح في جبل اللكام وكانوا يستقيمون للولاة مرة ويعوجون أخرى فيكاتبون الروم بمالئونهم على المسلمين وخرج قوم منهم في حرب مصعب بن الزبير الى الشام مع قائد الروم فتفرقوا في نواحي الشام لاسيما لبنان وعرفوا بالمردة فاضطر عبد الملك بن مروان الى أن صالحهم» ذكره في معجم البلدان . وسكان هذه الجبال الشاهقة في يومنا تركمان سنيون لايزالون على الفطرة معروفون بصدق المعاملة يقطنون في الشتاء في قرام المخبأة في بطون الفجاج قرب السفحين الغربي والشرقي وفي الصيف يصعد أكثرهم كما قال أوليا چلبي — الى المرابع والنجود المرتفعة لرعي الماشية وقطع الحطب ويحذو حذوهم جم غفير من أكراد حرة الجاة في شمالي العمق وهم أهل وبر وا كارون . وجبال اللكام كانت وماتزال

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

آهلة بالدراويش . ثم استأنفنا المسير نحو القبلة فمررنا بتكية ثانية أصغر من الاولى فيها بضعة دراويش ينتسبون الى الطريقة البكتاشية ثم اجتزنا جسراً نصب على نهر تجتمع مياهه من الاودية المنحدرة من أعالي الجبال التي ذكرناها ونصب في البحر . وعلى مقربة من هذا الجسر مررنا بقلعة تدعى «قلعة المركز» تبعد عن البحر رمية سهم بنيت في سفح جبل عال مربعة الشكل ذات بناء جميل قيل أنها من عهد القياصرة(١) . ولما مر السلطان سليم من هذا المكان سنة ٩٢١

غنية بالحراج (١٥٠٠٠ هكتار) على الرغم من انكباب الام الغابرة على قطعها لبناء الاساطيل والمعابد والقصور وهي قد اشتهرت بوفرة ما في منحدراتها الشرقية والغربية من الصنوبر الحلبي والارز والشوح والسنديان والبلوط والزان والقيقب والاشجار المثمرة البرية كالتفاح والاجاص والزعرور ويكثر الغار والصفصاف الشرقي والجوز والدردار في الأودية الرطبة كما ان الزمزريق والقطلب ولاسيما اللبنة منتشرة وكثيفة في اكثر الاماكن وفي قرب بياس في لواء اسكندرونة منجم كبير يحوي معادن مختلفة كالحديد والكروم والآميانت والمانغانز والنحاس لكنها بنسبة قليلة لا تفي بنفقات الاستخراج . وقد عرف القدماء هذه المعادن واستثمروا منها معدن الزاج الذي ذكر المؤرخون وجوده بين بياس وبوقة .

(١) اذا خرج السائح من بياس موازياً شاطي البحر يصادف على بعد كيلومتر منها نهر بياس الذي ذكر أوليا چلبي جسره وفي ضفته اليسرى يبدأ التخم الذي اعتبر الآن رسمياً بين بلاد الشام وبلاد الترك وهذا التخم يسير شرقاً بموازاة ذلك النهر متسلقاً قمة مغير هابطاً ضفة نهر الاسود اليسرى . ويصادف السائح في طريقه سهلاً كثير الحصى والبلان منبسطاً بين سفوح جبل اللكام والبحر وفيه يمر النهر المسمى (دكرمن دره) وقد ذكر اوليا چلبي جسره . ويرتأي بعض الباحثين ان معركة ايسوس الكبرى التي وقعت بين دارا ملك الفرس واسكندر المكدوني وغلب فيها دارا وكانت سبباً لاستيلاء الاسكندر على بلاد الشام حدثت في هذا السهل الواقع جنوبي بياس والذي عليه اكثر المحققين بانها وقعت

وهو ذاهب للاستيلاء على مصر افتتحها بالامان وهي الآن تابعة لنيابة بياس وفيها قائد وعدة جنود وحولها كروم وبساتين وفي داخلها جامع وبضعة بيوت لسكنى الجنود .

وبعد ان اجتزنا هذه القلعة مررنا في ساحل البحر بمضيق يدعى صقال طوتان (قابض الذقون) لاتنقطع والعياذ بالله منه اللصوص وقطاع الطريق وجلهم من أشرار الاكراد الذين يهبطون من ناحية الجومة من أعمال حلب . لذلك يجدر بالمجتازين من هنا ان يكثروا من الحيطة والحذر . وبعد ان مررنا بمكان يدعى آجي جاي (النهر المر) وصلنا بعد ساعتين ونصف الى قلعة إسكندرون (١) .

شمالي بياس بالقرب من نهر دلي شاي . اما القلعة التي ذكرها الجلبي فقد دثرت . وبعد مسير عشرة كيلومترات يصادف السائح أطلال « قلعة المركز » التي ذكرها الجلبي ماثلة بجدرانها وببعض أبراجها الضخمة وهي احدى قلاع جبل اللكام المنيعة التي نوهنا بها وبمصيرها وقل من يعرفها الآن بهذا الاسم بل باسم القرية القريبة منها « صاري سكي » وكان الصليبيون يسمونها حصن كاستيم أوحصن كودفروا وثمة في شمالي هذه القلعة أطلال جدار يمتد من الغرب الى الشرق يدعوه الفرنج جدار السلوقيين لايزال قسم منه قرب البحر سالماً في الجملة وقسم آخر في سفح الجبل وكان هذا الجدار على مايظهر لسد الطريق في وجه الجيوش الزاحفة من الشمال الى الجنوب او بالعكس .

(١) بعد مغادرة قلعة المركز يضيق السهل الممتد في الساحل تدريجاً الى ان يقترب ذيل جبل اللكام من البحر فيؤلف معبراً ضيقاً كان يسميه الرومانيون باب قيليقية والعلميون Portella وكان يعتبر هذا المضيق في العصور الغابرة الحد الفاصل بين سورية وقيليقية وكان فيه لملوك الارمن دار للمكس . وقبل الحرب العامة مد الالمان في وسطه سكة الحديد الآخذة من اسكندرونة الى (طوبراق قلعة) لحلب . ويعلو الصخور التي عن يمين

وصف اسكندزونة — سميت هذه البليدة باسم بانيها اسكندر الكبير وبعد ان خربتها عوادي الزمن عمرت في اول عهد الاسلام(١) ثم خربت مرة أخرى وصارت ملجأ لقطاع الطرق وقرصان الافرنج فاسترعى هذا المضيق ويساره أعمدة رخامية أثرية يعرفها الملاحون باسم أعمدة يونس ويزعمون ان الحوت الذي ابتلع النبي يونس عاد فلفظه على شاطىء هذا المضيق · على حين انها ليست الا بقايا باب كبير من آثار اليونانيين او الرومانيين كان معداً لسد المضيق وفتحه في وجه المارين والعابرين او للاشارة اليه · وفي رواية ان جسد الاسكندر بعد موته وضع فوق هذا الباب ومرت من تحته قواده وجحافله · والقلعة المركز على قيد غلوة من هذين العمودين ولا يزال سكان هذه البلاد وهم أتراك يدعون المضيق والقلعة معاً باسم صقال طوتان ·

(١) قال ابو الفداء : باب اسكندرونة من جند قنسرين · قال احمد الكاتب : وباب اسكندرونة مدينة على ساحل البحر الرومي بالقرب من أنطاكية بناها ابن ابي دؤاد الايادي في خلافة الواثق · قلت ان اسكندرونة كانت موجودة قبل الاسلام · وقد ذكرها المؤرخان اليونانيان هيرودتس و كسنفون باسم ميرياندروس · الا ان هذه كانت خارج البلدة الحالية والى الجنوب الشرقي منها وكانت مستعمرة لفريق من الفينيقيين · وقد اكتشفوا في الايام الاخيرة كثيراً من آثار ميرياندروس وفسيفسائها · اما اسكندرونة الحالية فهي بلا ريب من عهد الاسكندر شيدها خلفاؤه وسموها باسمه لتمجيد النصر الباهر على دارا ملك الفرس في وقعة ايسوس · ولعل ابن ابي دؤاد الذي ذكره احمد الكاتب رممها بعد خراب قد يكون أصابها في ذلك الحين · يبلغ عدد سكانها الآن ثلاثة عشر الفاً وهم بازدياد اكثرهم من الأرمن اللاجئين من بلاد الترك بعد سنة ١٣٤٠ · وقد جعلت منذ احتلال الافرنسيين قاعدة لمتصرفية شبه مستقلة تتبع حكومة دمشق في بعض الامور وتشمل الجزء الشمالي الغربي من ولاية حلب القديمة وألحق بها ثلاثة أقضية اسكندرونة وأنطاكية وقرق خان وألحق بالقضاء الاول ناحية اسكندرونة وعرسوز وبالثاني نواحي أنطاكية والسويدية وعواقية وجبل موسى و كسب والاوردو وقصير الفوقاني والوسطاني والتحتاني والحربية وبالثالث نواحي قرق خان وحاجيلر والريحانية وبيلان ·

الحال نظر نصوح باشا الذي كان صدراً أعظم في زمن السلطان احمدخان فشرع ببناء قلعة حصينة في اسكندرونة ولكن السلطان نقم عليه بعد حين لتهامل بدى منه فقتله وبقيت القلعة دون اكمال · وحبذا لو أكملت هذه القلعة وجدد عمران اسكندرون لأنها فرضة بحرية ذات مكانة وقريبة من حلب نحو مرحلتين · وقد علمت انه يزورها في كل عام من سفن المسلمين والافرنج أكثر من مائتي غليون · هذا وحرمان هذه الفرضة من قلعة جعل الافرنج يتقاعسون عن دفع المكوس الى الملتزم الذي التزمها بمائتي حمل[1] · ولاسكندرونة قاضي يجبي من قراها خمسة أكياس[2] ولها ميناء لطيف لولا ان غربيه مكشوف بأُفي بالرمل فيحول دون اقتراب السفن من الشاطئ ويضطرها للرسو على بعد رمية مدفع · والى الغرب من ميناء اسكندرونة وعلى بعد ٢٦٠ ميلاً بحرياً[3] يوجد رأس اندراوس في جزيرة قبرص وقد قيل لي انه اذا اعتدل الهواء وصفا أديم السماء ترى من هنا جبال قبرص المجللة بالثلوج · اما انا فلم يتسن لي رؤية ذلك · وبكثرة وجود الافرنج والروم في اسكندرونة لهذا لاتجد فيها جامعاً او خاناً او حماماً او سوقاً سوى الحانات فانها كثيرة · وقد اعتاد الصادي والغادي الى اسكندرونة ان يمكث ليالي الشتاء في هذه الحانات حتى صارت تشبه الخانات · ويجلب الماء الى اسكندرونة على ظهور الحمير من

(١) اذا كان الحمل مائة الف قرش فالمائتا حمل تعادل عشرين مليوناً من القروش ولعل الجلبي مبالغ بهذا المبلغ · (٢) الكيس خمسمائة قرش · (٣) صحيحه مائة وخمسة أميال ·

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

نبع في خارجها بدعى نبع القوافل(١) وقد اعتاد الداخلون الى هذه البلدة والخارجون منها ان يضربوا خيامهم قرب هذا النبع . وفي اسكندرونة وكلاء اوقناصل لسبع دول . اما القناصل الاصليون فمركزهم في خان الافرنج في حلب . ولما كانت الاسكندرونة فرضة بحرية وباب تجارة لحلب وضواحيها تجد بجانب جمركها مخازن عثمانية يقوم فيها تجار الافرنج بالبيع والشراء دون انقطاع . حتى انه لما مر مولانا مرتضى باشا من هنا بموكبه الحافل كان من سفن الافرنج ستة وعشرون غليوناً راسياً في الميناء فأطلق كلها المدافع ترحيباً بجنابه ودام الاطلاق مدة غير يسيرة حتى كادت الغلايين لا ترى من كثرة النار والدخان . وتحيط باسكندرونة مستنقعات(٢) . ثم قمنا من هنا مع الركب فمررنا بنبع القوافل وسرنا نحو القبلة نحاذي الساحل تارة ونصعد في الجبال أخرى وكان المطر ينهمر علينا بشدة الى ان وصلنا الى بليدة تدعى بيلان(٣) .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

---

(١) يدعى هذا النبع الآن رأس العين ومذ ماتقدمت اسكندرونة في العمران مدت الانابيب الحديدية من رأس العين الى البلدة وأسيلت فيها المياه واستراحت الحمير من النقل .

(٢) كانت هذه المستنقعات ذات مساحة عظيمة تحيط باسكندرونة وتتخلل أحياءها وأزقتها وتجعل هواءها وبيلاً والاقامة فيها خطرة لشدة الوبالة الناشبة في سكانها . دام هذا الحال الى أوائل القرن الحاضر اذ مدت الحكومة العثمانية سكة حديدية صغيرة كانت تنقل بها التراب من الآكام القريبة وتطمر بها تلك المستنقعات وظلت العناية بالطمر قائمة الى الآن حتى زال كثير منها وحسن المناخ عماقبل وازداد عمران الاسكندرونة .

(٣) الطريق بين اسكندرونة وبيلان وطوب بوغاز (٢٧ كيلومتراً) معبدة ومعتنى بها وهي من أنزه الطرق وأجملها . يغادر السائح مستوى البحر في اسكندرونة حيث الحرارة

وصف بيلان ٠— وبيلان مركز قضاء يتبع أيالة حلب فيها نحو ثلاثة آلاف من السكان ودورها مبنية من الطين على طرفي جبلين متقابلين بينهما واد ٠ وهذه الدور يركب بعضها فوق بعض وتتخللها أزقة ضيقة ٠ وهواء

والرطوبة شديد في الوطأة فيمر من أمام رأس العين وعلى قيد غلوة منه المكان الذي يظن انه كانت فيه مدينة ميرياندروس ثم يشرع بتسلق أعضاد جبل اللكام وكلما اعتلى يجد الهواء العليل والمشهد النضر وفي الكيلومتر العاشر يرى على يمينه الطريق الصاعدة الى قرية صوغوق اولوق (علوها ٩٠٠ متر وسكانها أرمن) وفي غربيها قرية النار كيزلك (علوها ٥٠٠ متر وسكانها أتراك) ويقصد اهل اسكندرونة وحلب هاتين القريتين للاصطياف حيث يجدون المناخ الطيب والمنظر الجميل والحراج الغيناء والفنادق الجميلة ناهيك عن زرقة البحر ومرآه الرائع وفي الكيلومتر (١١) مفترق الطريق الصاعدة الى قرية عاتق الارمنية (علوها ١٠٠٠ متر) وهي وان لم تضارع جارتها بالحراج والفنادق لكنها تفوقها بالينابيع الباردة وجمال المناظر في الصرود الشاهقة بقربها كثنية كوزيل (١٦٠٠ متر) وقمة شا كشاك (١٨٣٥) وفيها مشاهد تأخذ بمجامع القلوب حقاً ٠ فالواقف اذا تطلع الى الشرق يرى آكام جبل اللكام تنحدر أمامه نحو سهل العمق ومستنقعاته وبحيرة أنطاكية الزرقاء وما في شرقها من الجبال والهضاب كجبل الزاوية والاعلى وباريشا وسمعان والكرد وغيرها الممتدة في الأفق البعيد حتى سهول حلب الغربية واذا تطلع نحو الشمال يرى قمماً في جبل اللكام تناطح السحاب كـ ململطاغ (١٨٣٥) وداز تبه (١٧٠٧) وآق قيا (٢٥٠٠) ومغبر (٢٢٦٧) ويرى بينها نجاداً ومرابع متسعة انتشرت فيها الوف من قطعان الغنم والماعز ترعى الاعشاب والانجم الغضة وفي الغرب سلسلة جبال طوروس التي تنفصل عن آمانوس بسهول قيليقية الفسيحة والبحر الخضم وقد سترت الغيوم البيضاء زرقته فزادت في روعة المشهد ٠ وهذا ما حمل ياقوت في معجم البلدان ان يذكر جبل اللكام قائلاً : هو الجبل المشرف على انطاكية وبلاد ابن ليون والمصيصة وطرسوس وتلك الثغور اه ٠ هذا وفي الكيلو متر (١٣) يصل السائح الى بيلان ٠ وهي بليدة جميلة المنظر ، طيبة الهواء ، غزيرة المياه (علوها ٥٠٠ متر) يشطرها الوادي السحيق الفاصل ما بين جبل الاكام وجبل الاحمر الى شطرين بنيت

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

بيلان جيد وماؤها عذب وصحة أهلها حسنة وفيها مسجد جميل له قبة مكسوة بالرصاص وامامه خان عامر وفيها ايضاً حمام وحوانيت عديدة وينتج فيها فواكه وأعناب لذيذة فهي صالحة في الجملة للاصطياف ثم ان في الجبال التي تعلوها نجود اشتهرت بنقاء هوائها وطيب مراعيها(١) ثم غادرنا بيلان وسرنا

دورها كما قال الجلبي في سفحي الوادي بعضها فوق بعض ، سكانها ٣٠٠٠ ثلثاها من الترك والثلث من الارمن · لم يذكر جغرافيو العرب بيلان اذ لم تكن عامرة في زمنهم وربما هي التي كانت تدعى باب اسكندرون · قال ابوالفداء : باب اسكندرون في زماننا هو دربند بلاد سيس من جهة حلب وهو على دون مرحلة من بغراس وليس هناك مدينة بالاصالة ولا قرية وبين بغراس وباب اسكندرونة اثنا عشر ميلاً اه · قلت والعمران كان مختصراً بقلعة بغراس التي سمى العرب المضيق اوالدربند بها في حين ان الافرنج سموه باب سورية (Pylea Syriae) ومنه مرت في العصور الغابرة اكثر جيوش الفاتحين الواردين على الشام اوالخارجين منها · وبيلان تقع في مبدإ هذا المضيق العظيم الذي يفصل جبل اللكام عن جبل الاحمر وربما كان اول من سعى في عمران بيلان هو السلطان سليمان القانوني فقد أعجبته مكانتها من الوجهة الحربية والتجارية فبنى فيها في سنة ٩٦٠ ه الجامع والخان اللذين ذكرهما أوليا چلبي ووضع جنوداً لحفظ المضيق وأسكن عدداً من التركمان جلبهم من الاطراف ومازال هؤلاء يزدادون وبيلان تتقدم في العمران وصارت ممر القوافل والجيوش بعد ان كان الممر بعيداً عنها قليلاً الى الشمال وصار اهل اسكندرونة يلجأون اليها في الصيف للتمتع بهوائها ومائها اللذين نوّه سائحنا بجودتهما · ثم اصبحت بيلان في عهد بني عثمان مركزاً للقضاء الى ان وفدت في سنة ١٣٤٠ ه ومابعدها جموع الارمن على اثر إخراجهم من بلاد الترك فاسكنت الحكومة الافرنسية طائفة منهم في موضع (قرق خان) في غربي سهل العمق وعلى طريق حلب المعبّدة فعمروا هذا الموضع الذي لم يكن الى ذلك الحين شيئاً مذكوراً وجعلوه بليدة حافلة بالدور والحوانيت والفنادق والمقاهي وغيرها ثم نقلت مركز القضاء اليه في سنة ١٣٤٢ ه وتركت بيلان قاعدة لناحية فأفل نجمها من ذلك الحين ·

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

(١) يعني الجلبي نجود جبل الاحمر المعروف هنا بقزل طاغ وبعده البعض تتمة سلسلة

نحو الجنوب نصعد عقبات ونهبط أودية الى ان اجتزنا مضيقاً فيه جنود مكلفون بحفظ الدروب(١) وشاهدنا في يميننا على بعد رمية مدفع «قلعة بغراس» وهي

آمانوس ويحسبه آخرون مستقلاً عنه بمضيق بيلان . وهذا الجبل وفروعه الغربية الممتدة من جنوبي بيلان الى ميناء عرسوز ورأس الخنزير تداشتهر مثل جبل اللكام بباقي منحدراته وآطامه من حراج الشجر الغضيض والمرابع الخضراء والمشاهد الجميلة والينابيع السارية مع شيء من الضباب الذي يخفف وطأة الحر في الصيف . واكثر حراجه مؤلفة من الصنوبر الحلبي والصنوبر الاسود والبطم والبلوط والقطلب والشوح والجوز وغيرها ويستخرج القطران من أشجار الصنوبر بكثرة . وفي هضابه المرتفعة آثار معادن مختلفة لم تستثمر بعد . ويقطن النصيريون في السهول الساحلية المصاقبة لسفوحه الغربية بين اسكندرونة وعرسوز وأشهر قراهم قره آغاج وهم فلاحون ويقيم التركمان في النجود والهضاب لاسيما حول غابات كسربك وقره كوز وجنكان ويش اولوق ومهنتهم قطع الحطب وصنع القطران وهم على الفطرة وصدق المعاملة وتربي قرى الارمن في جبل موسى غربي انطاكية الى الشمال دود الحرير ويصنع أهلها الامشاط من خشب القطلب . وفي سني الحرب العالمية لما أجبرت الحكومة العثمانية هؤلاء على الهجرة كما جرى لبقية الارمن اعتصموا بجبلهم بين الحراج وحاربوا الحملة التي هاجمتهم واستبسلوا الى ان توصلوا للاتفاق مع سفن الحلفاء فركبوها رجالاً ونساء وانتقلوا الى ساحل مصر وهناك الفوا كتائب الانتقام الارمنية التي زحفت مع جيش الجنرال اللنبي سنة ١٩١٨ ودخلت مدن الشام وكان منها ماذكره المؤرخون .

(١) بعد مغادرة بيلان يظل السائح صاعداً في طريق طوب بوغاز الى الكيلو متر (١٦) حيث يلاقي مضيق بيلان او دربند بغراس كما كان يدعى «علوه ٧٠٠ متر» فيشرف من هذه الروابي النضرة على منظر غاية في الروعة والبهاء فهو يرى في الشرق سهل العمق ومستنقعاته وبحيرته والجبال والآكام المحيطة به فيحلق في سماء التفكير ويتذكر كيف مرت من هنا جحافل الآشوريين والفرس والمقدونيين والرومانيين والبيزنطيين والمسلمين الأولين بقيادة ميسرة بن مسروق العبسي والحملة الصليبية الاولى وجيوش المماليك والتركمان والتتار وابراهيم باشا المصري الذي كسر فيه سنة ١٢٤٨ الجيش العثماني بقيادة

قلعة قديمة تعاورتها أيدي كثير من الملوك الى ان افتتحها السلطان سليم بالامان حينما مر بهذا الطريق وهو ذاهب لقتال الملك قانصو الغوري في مرج دابق · والقلعة صغيرة القد مخمسة الشكل مبنيـة على هضبة اتخذت قضاء تابعاً لايالة حلب وأقيم فيها كتخدا وقائد جند الانكشارية ومحافظ القلعة وجنود وفيها جامع وخان وحمام وسوق صغيرة(١) على انها لانحرافها عن الطريق ليست

السردار حسين باشا · وبعد المضيق يبدأ الطريق بالانحدار ففي الكيلو متر ٢٠ موقع جقالي وفيه مخفر للدرك يؤمنون السابلة في هذه المسالك الوعرة وهنا يلمح السائر على يمينه (قلعة بغراس) رابضة فوق رابية تشرف على هذا الطريق ·

(١) قال ابو الفداء : بغراس من جند قنسرين ذات قلعة مرتفعة ولها اعين وواد وبساتين قال ابن حوقل وبغراس على طريق الثغور وكان بها دار ضيافة لزبيدة وهي في الجبل المطل على عمق حارم وفي معجم البلدان لياقوت بغراس مدينة في لحف جبل اللكام بينها وبين انطاكية اربعة فراسخ ذكرها البحتري في شعر مدح به احمد بن طولون الذي حاصر سيما الطويل التركي صاحب انطاكية في سنة ٢٦٤ وجرت بينهما حروب كثيرة ببلاد جند قنسرين والعواصم قال البحتري :

سيوف لها في كل دار غداً ردى　　وخيل لها في كل دار غداً نهب
علت فوق بغراس فضاقت بما جنت　　صدور رجال حين ضاق بها درب

كانت تدعى هذه القلعة في زمن الروم حصن لوقا وهي في يومنا خراب في الجملة على ان اطلالها لا تزال ماثلة وهي اكبر مما ذكره الجلبي كانت تسع زهاء الفي جندي وكان لها سوران وكنيسة وبهو كبير واربع طبقات من القاعات المعقودة سقوفها وكثير من المستودعات والاصطبلات والغرف والآبار وكان لها قناطر علوها ١٨ متراً تأتي بالماء من الجبال الى القلعة والبناء الحالي اسلامي يتخلله بعض آثار للروم والصليبيين · قال الكولونل جاكو مؤلف كتاب انطاكية ماخلاصته : ان لقلعة بغراس مآسي مفجعة في تاريخ المسلمين منها ان الروم لما جاؤا بقيادة القيصر نيكوفورفوكاس في سنة ٣٥٨ هـ وغزوا بلاد الشام

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

عامرة وانحصرت الآن شهرتها بزهورها الفيّاحة لاسيما بالسنبل والمسك الرومي وأهلها يقلعون من جبالها وحدائقها أبصال الزهور الجميلة فيحملونهـا ويبيعونها في بقية البلدان وقد يصلون بها الى استانبول · «للبحث صلة»

وصفي زكريا

حتى حمص وعرقة وطرابلس وجميع الساحل واعملوا فيهـا النهب والحرق والخراب عادوا ومعهم من السبي مئة الف صبي وصبية من ابناء المسلمين ولما ساقوا هؤلاء المساكين امامهم ليأخذوهم الى القسطنطينية اشتدت انواء الشتاء وسدت المسالك في جبال آمانوس وطوروس فاضطروا للوقوف بهم في قلعة بغراس · ولما لم تكن الأقوات ووسائل الايواء والتدفئة كافية حصدهم الجوع والبرد والامراض وصارت سهول العمق مقابر لهم اه· قلت وبعد ثلاث سنوات تمكن الروم من فتح انطاكية بخيانة اهل بغراس الذين بعـد ان التجؤا الى انطاكية نقبوا الأسوار ومكنوهم من الدخول · وحينما جاء الصليبيون في الحملة الأولى اخذوا بغراس فيما اخذوه من بلاد الشام الشمالية وجعلوها مع قلعة دربساك وحارم وارتاح مخفراً امامياً لانطاكية الى ان جاء الملك الناصر صلاح الدين الايوبي سنة ٥٨٤ فحاصر بغراس ودربساك وقاتلها بشدة حتى افتتحها بالامان الا انه بعد بضعة اعوام جاءها مقدم الأرمن ابن لأون فدخلها وظلا بيده تارةً وبيد الصليبيين أخرى الى ان استولى الملك الظاهر بيبرس عليها نهائياً حينما فتح انطاكية عنوةً سنة ٦٦٨ · هذا ولم يبق من القرية في اسفل القلعة من العمران الذي ذكره الچلبي سوى ٣٠ — ٤٠ دار منتشرة على طول الوادي والعيون والبساتين التي ذكرها ابوالفداء يسكنها فلاحون من النصيرية والتركمان ولم أدر اذا كانوا كما قال الچلبي يتاجرون حتى الآن ببصل الزهور أم لا ·

عبقرية الجاحظ[1]

—(()—

تبين لنا في كلامنا على عصر الجاحظ ان الجاحظ متصل بكل أفق من آفاق هذا العصر ، فلئن استفاضت حرية التفكير في عصره فما غاب عن هذه الحرية فقد كان يرجع الى عقله في كل مذهب من مذاهبه ، ولئن شاعت الزندقة والخرافات والاباطيل في أيامه فما غفل عن التنديد بها والتقذر منها ، بقي أن نعلم مقدار اتصاله بالناحية الثالثة من نواحي عصره ، وهي جهة الانقلاب الفكري فما هو نصيب الجاحظ من هذا الانقلاب .—

نقلت في أيامه كتب الهند وترجمت حكم اليونانيين وحولت آداب الفرس ، فما هو حظ الجاحظ من هذا النشاط الفكري .—

قد كنت ذكرت لكم في بعض المواطن ان الجاحظ انما هو كامل من الكملة وأردت بكلمة الكامل ما يريده الافرنجة بكلمتهم Encyclopédiste فالجاحظ لخص معارف عصره على نحو ارسطاطاليس في القديم ، وقد أشار بعض الافرنجة الى امتداد هذه العبقرية وانبساط مجالها فاستشهد أحدهم وهو البارون « كارادي فو » Baron Carra de Vaux في كتابه : أصحاب الفكر في الاسلام ، بفصل الجاحظ في نعم الكتاب وهو الفصل الذي عقده في مقدمة كتاب الحيوان فدل على براعته في الانشاء فبعد أن ذكر البارون طائفة من هذا البحث قال :

« هذا بوجه التقريب نمط من أنماط فصول الجاحظ ، ان في هذا كله مجموعاً قد يكون في بعض الأحيان غير منسجم ولكنه ملآن بالحوادث والأفكار ، اني لا أجسر على أن

---

(١) سلسلة محاضرات الاستاذ السيد شفيق جبري احد اعضاء المجمع العلمي العربي التي شرع في المحاضرة بها في كلية الاداب في دمشق سنة ١٩٣١ .

أؤكد أن كل فصوله قد تكون خصيبة مثل هذا الفصل ولكننا قد نلاقي في كلها بعض الشيء ، ولنذكر ايضاً أن في رسائله الصغيرة قطعاً جديرة باستيقاف الباحثين وخليقة بدراسة خاصة ففي رسالة التربيع والتدوير تعرض لنا ولا أدري كيف يكون ذلك سلسلة طويلة فيهامسائل في كل أنواع الموضوعات والعلوم ، في التاريخ والأساطير وطبقات الارض كأن هذا كله انما هو برنامج «موسوعة» تدل على روح التطلع في القرن التاسع وفي رسالة الأسود والأبيض كلام موجز على تاريخ الزنج وذكر أبطالهم وفتوحاتهم ، كل هذا مجموع حوادث قلّ من يعرفها وقد تنفع في البحث عن روح الامم والأجناس .—

ان هذا النوع من علم الروح كثيراً مايستهوي الجاحظ فهو يرجع اليه من حين الى آخر فان عقله الغريب الميّال الى النقائض يحمله على النظر في الأمم التي لم يكن لها على أيامه مقام عال ، وعلى هذه الصورة ان لرسالته في مدح الترك فائدة ومن الممكن ان تكون هذه الرسالة اول الكتب التي توسّع أصحابها في الكلام على الترك وجعلوا لهم بعض الشأن فان خصائص الامم تشغل ذهن الجاحظ فهو يأتي على ذكرها في عدة مواطن .— »

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

* * *

خاض الجاحظ في كل باب من الأبواب فلم يتعاظمه الكلام على الاجتماع أو على الأخلاق أو على التربية والتعليم أو على الطبيعة أو على التاريخ الطبيعي أو على فلسفة اللغة الى غير ذلك من المذاهب التي تدلّ على سعة عبقريته غير أن استقصاء هذه الغرائب والعجائب قد يطول أمره ولكننا لامندوحة لنا عن الإلمام ببعضها حتى نعرف شيئاً من امتداد عقل الجاحظ .—

يتنقل الجاحظ على نحو ماقال البارون « كارادي ڤو » من فكر الى فكر ولكنه يظل في هذه التنقلات صاحب نكتة ، خفيف الروح ، محبوب النفس ، انه يلعب من دون ان يُضجر غيره في هذا اللعب .—

مرةً يخطر بباله باب من أجلّ أبواب الاجتماع في هذا العصر وهو الكلام على حقوق النساء فينبري للدفاع عن المرأة والمطالبة بتوفير حقوقها فكأنه نصير النساء في أيامنا

هذه [1] :

« ولسنا نقول ولا يقول أحد ممن يعقل أن النساء فوق الرجال أو دونهم بطبقة أو طبقتين أو بأكثر ولكنا رأينا ناساً يزرون عليهن أشد الزراية ويحتقرونهن أشد الاحتقار ويبخسونهن أكثر حقوقهن وأن من العجز أن يكون الرجل لا يستطيع توفير حقوق الآباء والأعمام الا بان ينكر حقوق الأمهات والأخوال فلذلك ذكرنا جملة ما للنساء من المحاسن ولولا ان ناساً يفخرون بالجلد وقوة المنة وانصراف النفس عن حب النساء حتى جعلوا شدة حب الرجل لأمته وزوجته وولده دليلاً على الضعف وباباً من الخور لما تكلفنا كثيراً مما شرطناه في هذا الكتاب .— »

وقد قال في مقام آخر [2] :

« ونحن وان رأينا أن فضل الرجل على المرأة في جملة القول في الرجال والنساء أكثر وأظهر فليس ينبغي لنا أن نقصر في حقوق المرأة وليس ينبغي لمن عظم حقوق الآباء ان يصغر حقوق الأمهات وكذلك الإخوة والأخوات والبنون والبنات وأنا وان كنت أرى ان حق هذا أعظم فان هذه أرحم .— »

ومرة يتغلغل في أعماق الجماعات فيقلب النظر في أخلاقهم فلا يزال يمارس هذه الأخلاق ويدوّن في ذهنه نتائج مراسه وتجربته حتى يكشف الغطاء عن أسرارها فيقذف في هذا المعنى بالرأي الخبير الذي لا تزيده الايام الا قوةً وتمكناً من هذا الباب كلامه على السفلة والوضعاء والمحقّرين الذين اذا صار اليهم شيء من الامر ظلموا وغشموا [3] :

« والكِبْر في الأجناس الذليلة من الناس أرسخ وأعم ولكن الذلة والقلة مانعتان من ظهور كبرهم فصار لا يعرف ذلك الا أهل المعرفة ، كعبيدنا من السند وذمتنا من اليهود ، والجملة ان من قدر من السفلة والوضعاء والمحقرين أدنى قدرة ظهر من كبره على من تحت قدرته على مراتب القدرة ما لا خفاء به فان كان ذمياً وأحس بما له في صدور الناس تزيد في ذلك واستظهرت به طبيعته بما بطن ان فيه رفع ذلك الخرق

(١) رسائل الجاحظ على هامش كامل المبرد — الجزء الاول ص ١٥٢ .

(٢) « « « « ص ١٦١ .

(٣) كتاب الحيوان الجزء السادس ص ٢٢ .

وحياض ذلك الفتن(١) وعد تلك الثلمة فتفقد ما أقول لك فانك ستجده فاشياً وعلى هـذا الحساب من هذه الجهة صار المملوك أسوأ ملكاً من الحر وشيء لم تنتله علماً وهو اني لم أر ذا كبر قط على من دونه الا وهو يذل لمن فوقه بمقدار ذلك ووزنه . — »

ونحن اذا تفقدنا ماقاله وجدناه فاشياً كل الفشو حتى نكاد نلمس بايدينا هذه الأخلاق في كل جانب من جوانبنا فما أصدق قوله ، وما أبين رأيه ! لقد تعمق في روح الجماعات وأمعن في دراسة هذه الروح فبعد دراسته للحيوان وإظهاره لاخلاقه وطبائعه ومقابلته بين أصناف هذا الحيوان وكلامه على تعادي هذه الأصناف ، بعد هذا كله يرتفع الى أفق أعلى من أفق الحيوان فيصور عداوة الانسان ويوضح أسباب هذه العداوات فيقول(٢) :

« وأسباب عداوات الناس ضروب منها المشاكلة في الصناعة ، ومنهـا التقارب في الجوار ، ومنها التقارب في النسب والكثرة من أسباب التقاطع في العشيرة والقبيلة والمساكن عدو للمسكن والفقير عدو للغني وكذلك الماشي والراكب وكذلك الفحل للخصي وبغضاء السوقى موصولة بالملوك وكذلك الوضاع بالمال الرغيب وكذلك الوارث والموروث ولجميع هذا تفسير ولكنه يطول . — »

فلو أجبنا أن نمحن قوله في هذه الأيام لما وجدنا فيـه انحرافاً عن الحق فليس آراؤه في الاجتماع الا بنات تجربته وعيانه وكما انه درس أخلاق الجماعات العامة فكذلك درس أخلاقهم الخاصة وأمعن في هذه الدراسة في مثل كلامه على البخل أو على الفسق اوعلى الحسد فلم يفته لون من ألوانها أو حركة من حركاتها أو هيأة من هيآتها ، ومن قرأ كتابه في الحاسد والمحسود تجلت له قدرته على تصوير الاخلاق الخاصة فيكاد يكون في هـذا الباب عالماً من علماء النفس يتصل باجزائها فيقاربها ويخالطها ويعرض لكل ناحية من نواحيها ويصف هذه الناحية أدق وصف ويصورها أتم تصوير حتى اذا فرغ من البواطن انتقل به الكلام الى الظواهر فراقبها وتأمل فيها واستخرج منها صفاتها البارزة وخصائصها الظاهرة ولولا اني اعتقد ان في نقل طائفة من هذا كله تشويهاً لمحاسنه لنقلتها لكم . —

ماذا أنقل ، أأنقل هذا التعريف الوجيز الذي صوَّر فيه بكلمتين داء الحسد فقال :

« والحسد أبقاك الله من داء ينهك الجسد ويفسد الأود ، علاجه عسر ، وصاحبه

(١) كذا في الاصل . (٢) كتاب الحيوان — الجزء السابع ص ٣٠ .

ضجر وهو باب غامض وامر متعـذر وما ظهر منـه فلا يداوى وما بطن منه فمداويه في عناء ٠— »

فمن كان له صلة بحاسد من الحساد تجلت له صحة هذا التعريف وشعر بقوته فأي حاسد لم تر جسده منهوكاً وصدره ضجراً لايملكه غمض الليل ولا يذوق لذة البال فلا تقع عينه على صاحب نعمة الا اضطربت كل أعصابه وكأن الطبيعة عادلة فقد جعلت في قلب الحاسد عقابه وما هذا العقاب الا النار التي تأكله ٠—

أم أنقل اليك حالة الحاسد الظاهرة :

« وما لقيت حاسداً قط الا تبين مكنونه بتغير لونه وشخوص عينـه واخفاء سلامه والاقبال على غيرك والاعراض عنك والاستثقال لحديثك والخلاف لرأيك ٠— »

أم حالته الباطنة وهي تنحصر في :

« تراكم الغموم على قلبـه واستكان الحزن في جوفه وكثرة مضضه ووسواس ضميره وتنغص عمره وكدر نفسه ونكد عيشه ٠— »

أم تمكن الحسد من صاحبه وسلطانه عليه :

« ما خالط الحسد قلباً الا لم يمكنه ضبطه ولا قدر على تسخينه وكتمانه حتى يتمرد عليه بظهوره واعلانه فيستعبده ويستميله ويستنطقه لظهوره عليه فهو أغلب على صاحبه من السيد على عبده ومن السلطان على رعيته ومن الرجل على زوجته ومن الآسر على أسيره ٠— »

أم وصفه علاج الحسد :

« فاذا أحسست رحمك الله من صديقك بالحسد فأقلل ما استطعت من مخالطته فانه أعون الاشياء على مسالمته وحصّن سرّك منه تسلم من شره وبوائق ضره واياك والرغبة في مشاورته ولا يغرنك خدع ملقه وبيـان ذلقه فان ذلك من حبائل نفاقه فان أردت ان تعرف آية مصداقه فأدنين اليه من يبينك عنده ويذمك بحضرته فانه سيظهر منشأنه لك ما أنت به جاهل ومن خلاف المودة ماأنت عنـه غافل وهو الحّ في حسده لك من الذباب وأسرع في تمزيقك من السيل الى الحدور ٠— »

أم وصفه الحاسد نفسه :

« فهو الكلب الكلب والنمر النمر والسم القشب والفحل القطم والسيل العرم وان ملك

قتل وسبي وان مُلِك عصى وبقي حياتك موته وموتك عرسه وسروره يصدق عليك كل شاهد زور ويكذب كل عدل مرضي لا يحب من الناس الأ من يبغضك ولا يبغض الأ من يحبك عدوك بطانة وصديقك علانية . — »

فاذا دققنا في هذه الأوصاف كلها تحقق عندنا ماقلته لكم من ان الجاحظ عالم من علماء النفس يبني علمه على تجربته ثم يصف ماتوحي اليه هذه التجربة وصف صاحب صنعة وفن . —

ولما كانت التربية والتعليم لا تبعد كثيراً عن الامور الاجتماعية لم يشأ الجاحظ أن يكون غريباً عنها فقد أدلى في هذا الباب بدلوه ، وعلى بعد عهده عنّا وعلى تقدم علم التربية والتعليم في عصرنا استطاع الجاحظ أن يأتي فيه بمذاهب تكاد تكون من احدث المذاهب ، انكم تعالجون التربية والتعليم علماً وعملاً فأظن أن من أحدث قواعده التي تطبقونها في مدارسكم تدريب الطالب على الاستنباط من دون أن يلجأ الى الحفظ لان الحفظ يسدّ عليه سبيل الاستنباط فيجمد عقله ويبلد ذهنه فاليكم ما قاله الجاحظ في هذا الباب [1] :

« وكرهت الحكماء الرؤساء أصحاب الاستنباط والتفكير جودة الحفظ لمكان الاتكال عليه واغفال العقل من التمييز حتى قالوا : الحفظ عذق الذهن ولأن مستعمل الحفظ لا يكون الأ مقلداً والاستنباط هو الذي يفضي بصاحبه الى برد اليقين وعز الثقة والقضية الصحيحة والحكم المحمود انه متى أدام الحفظ أضرّ ذلك بالاستنباط ومتى أدام الاستنباط أضرّ ذلك بالحفظ . — »

وكتابه في المعلمين قد اشتمل على القواعد المتبعة في التعليم في أيام الجاحظ فهو يصوّر لنا أساليب التربية والتعليم في العرب .

ولم يكن نصيب الجاحظ من علوم الطبيعة بأقلّ من نصيبه من بعض فصول في الاجتماع والأخلاق والتعليم وما شابه ذلك ، الأ انه قد يكون في آرائه الاجتماعية أصح فكراً وأقلّ خطأ اما في علوم الطبيعة فالجاحظ على جلالة بعض أقواله فيها قد لا يسلم من خطأ فان علوم الطبيعة قد تقدّمت في السنين الأخيرة ولكن الأخلاق واحدة في العصور قديمها وحديثها فالحسد الذي صوّره الجاحظ انما هو شبه الحسد الذي تفاقم شرّه في أيامنا . —

(١) رسائل الجاحظ على هامش المبرد للكامل — الجزء الاول ص ١٩

خاض الجاحظ في كثير من علوم الطبيعة في الحكمة الطبيعية والكيمياء وتوسع في التاريخ الطبيعي وخاصة في علم الحيوان .—

فلننظر الى بعض آرائه في هذه العلوم .—

انكم تعلمون انهم كانوا في عصر الجاحظ يمزجون الدين بالعلم معنى هذا أنهم اذا جادلوا في أمر من أمور الدين استعانوا في بعض الأحوال بمذاهب العلم من هذا الشكل مجادلة الجاحظ لمجوسي عارضه وقد قرأتم هذه المعارضة في كلامنا على عصر الجاحظ في فصل حرية الفكر ، فمن قول الجاحظ :

« والماء ليس يجمد للبرد فقط فيكون متى رأينا بلدة ثلجها أكثر حكمنا أن نصيبها من البرد أوفر وقد تكون الليلة باردة جداً وتكون متغيرة فلا يجمد الماء ويجمد فيما هو أقل منها برداً . وقد يختلف جمود الماء في الليلة ذات الريح على خلاف ما يقدرون ويظنون . وقد خبرني من لا أرتاب بخبره انهم كانوا في موضع من الجبل يستغنون به بلبس المبطنات ومتى صبوا ماء في اناء وزجاج ووضعوه تحت السماء جمد من ساعته فليس جمود الماء بالبرد فقط . . . »

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

اما اليوم فاننا لا نرضى بهذا الرأي على علاته فاننا اذا بحثنا عن جمود الماء قلنا يجمد الماء ويزداد حجمه اذا وصل الى درجة من الحرارة تبلغ الصفر في الميزان المئوي وجموده على صورة قطعة من جليد مركبة من بلورات مسدسات الشكل كثافتها ٠،٩١٨ .—

وكما تعرض للحكمة الطبيعية فقد تعرض للتاريخ الطبيعي فهو من أصحاب مذهب « التولد الذاتي » وله في هذا المعنى حكايات كثيرة من جملتها قوله (١) :

« والذباب من الخلق الذي يكون مرة من السفاد والولادة ومرة من تعفن الاجسام والفساد الحادث في الأجرام والباقلاء اذا عتق شيئاً في الأقباء استحال كله ذباباً فربما أغفلوه في تلك الأقباء فيعودون الى الأقباء وقد تطاير من الكوى والخروق فلا يجدون في الأقباء الا القشور والذباب الذي يخلق من الباقلاء يكون دوداً ثم يعود ذباباً وما أكثر ما ترى الباقلاء مثقباً في داخله شيء كأنه مسحوق اذا كان الله قد خلق فيه الذبان وطيّره منه وما أكثر ما تجده فيه تام الخلق ولو تم جناحاه لقد كان طار .— »

(١) كتاب الحيوان — الجزء الثالث ص ١١٠

وله من هذا الشكل آراء كثيرة في كتاب الحيوان فهو يؤمن بحدوث الخلق من غير ذكر ولا أنثى وبخلق الديدان من الجيف[1] وبخلق القمل من العرق والوسخ اذا علاهما ثوب أو ريش أو شعر[2] :

لقد أبطل العلم هذه الآراء بمجامعها فقد دلت تجاريب « باستور » Pasteur على ان «التولد الذاتي» أمر ممتنع فكل جرثومة مصدرها جرثومة مثلها وكل حي لا يلده الا حي مثله معنى ان الأحياء لا تلدها المواد العضوية أو المواد المعدنية .—

وقد كان للمتقدمين معتقدات غريبة في هذا الباب فقد زعموا ان القمل يلده لحم الانسان وان الديدان يلدها اللحم الفاسد وان البق ينشأ عن اختمار الروائح وما شابه ذلك .—

ان هذا كله قد رده العلم في أيامنا واذا وجدنا الديدان في اللحوم فمعنى هذا ان الذباب باض في هذه اللحوم فلو منعنا الذباب عن البيض لامتنعت الديدان فاذا ظهرت أحياء في مادة عضوية أو في مادة معدنية فهذه الأحياء ناشئة عن أحياء مثلها تغلغلت في هذه المواد وما أكثر تجاريب «باستور» في هذا المعنى .—

والى جنب هذه الآراء الباطلة قد تجد للجاحظ آراء جليلة في العلم تكاد تكون من أحدث الآراء فالحيوان في بيئة ما يكون تركيب خلقته مناسباً لهذه البيئة فمن قول الجاحظ في الضب[3] :

« قالوا : من كَيْس الضب ان لا يتخذ جحره الا في كُدْيةٍ وهو الموضع الصلب أو في الارتفاع عن المسيل والبسيط ولذلك توجد براثنه ناقصة كليلة لانه يحفر في الصلابة وبعمق الحفر .— »

فانظروا كيف علّل نقصان براثنه وكلالتها فبراثنه ناقصة كليلة لانه يحفر في الصلابة وبعمق الحفر وهذا التعليل علمي محض .—

والى جنب هذا كله بحثه عن غريزة الحيوان وعن إحساسه وما أحببت ان استقصي هذه الآراء فادل على ما بطل منها وعلى ما صح في عصرنا هذا فان هذا العمل انما هو عمل العالم

(١) كتاب الحيوان — الجزء الثالث ص ١١٤
(٢) « « « الخامس ص ١١٣
(٣) « « « السادس ص ١٢

الا الاديب فاذا تفرغ طلاؤنا لتدوين أطوار العلم في العرب استطاعوا أن يجـدوا الجاحظ مادة واسعة في هذا الباب وأما عملنا فاننا نقتصر فيه على الايجاز في الكلام على الجاحظ من حيث سعة عبقريته ٠—

وبينا نجده يبحث أمثال هذه المباحث اذ يتفرغ لباب من أروع أبواب اللغة وهو باب : حياة الألفاظ ، انكم تعلمون أن انغيير معاني الألفاظ أسباباً منطقية وأسباباً روحية وأسباباً أدبية ، فمن جملة الأسباب المنطقية الاستعارة فالاستعارة تنقل اسم الشيء الى شيء غيره لصفة من الصفات يشترك فيها الشيئآن فورقة الشجر تعير اسمها ورقة الكتابة بسبب الرقة التي تشترك فيها الورقتان فانظر٠ كيف يخوض الجاحظ في مثل هذا الفصل فيقول [1] :

« ثم سموا الأطام التي كانت بالمدينة للامتناع بها من الأعداء صياصي نال الله عز وجل : وانزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم والعرب تسمي الجارح وذا الجثة صاحب سلاح فلما كان اسم سلاح الديك ومايمتنع به صيصية سموا قرن الثور الذي يجرح صيصية وعلى انه يشبه في صيصية صورته بصيصية الديك وان كان أعظم ثم لما وجدوا تلك الأطام معاقلهم وحصونهم وجنتهم وكانت في مجرى الترس والدرع والبيضة اجروهما مجرى السلاح ثم سموا صياصي ثم سموا شوكة الحائك التي بها تهيأ السداة واللحمة صيصية اذ كانت مشبهة بها في الصورة فان كانت أطول شيئاً ولانها مانعة من فساد الحوك والغزل ولانها في يده كالسلاح متى شاء أن يجأ به انساناً وجأه به وقال دريد بن الصمة :

نظرت اليـه والرماح تنوشه كوقع الصياصي في النسيج الممدَّد

وقد تسمي العرب ابرة العقرب شوكة كما تسمي صيصية الديك شوكة وهي من هذا الوجه شبيهة بشوك النخل ويقال لمن ضربته الحمرة قد ضربته الشوكة لأن الشوكة اذا ضربت انساناً فما اكثر ما تعتريه من ذلك الحمرة ٠٠٠٠— »

ثم توسع في هذا الباب على هذا النحو —٠

هذا نمط من الأفكار التي عالجها الجاحظ يدلكم على شيء من سعة علمه وامتداد أفياء عبقريته ومن خصائص الذين يخوضون في أبواب كثيرة ويتعرضون لمذاهب شتى قلة التعمق فقد تعرض لم أفكار كثيرة لانبساط ثقافتهم فيلمون بها إلماماً ولا يتعمقون فيها تعمقاً فهم

(١) كتاب الحيوان — الجزء الثاني ص ٨٥

يفهمون كل ما يقع عليه نظرهم ولكنهم قد لا يفهمونا إياها في بعض الاوقات على نحو فهمهم لها فالجاحظ من هذا القبيل في بعض مباحثه فهو يلهو بالمعاني لهواً فيخرج من فكر الى فكر ومن معنى الى معنى ولكنه يضرب في آفاق كل المعاني ويجول في ميدان كل الأفكار ، ايُّ كتاب من كتبه بل ايُّ سطرٍ من سطوره لا يوطيءُ للقاريءِ مجال التفكير وسوآء أتوسع في أفكاره أم ألمَّ بها إلماماً انه عظيم ولست أدري هل أورثتنا عبقرية العرب أعظم منه فهل نعرف حياةً أوسع آفاقاً من حياته العقلية وذهناً أخصب تربةً من ذهنه وفكراً اشدَّ انطلاقاً من القيود من فكره ، لقد ذاق لذَّة الحياة العقلية وتقلَّب في أعطافها فخالط عالم الأفكار واستأنس بهذا العالم فلم يستوحش من ناحية من نواحيه ، خاطب العقل في قرن متكامل ولكن هل تعلمون أي عقلٍ خاطبه ، لقد خاطب العقل الذي يكره كل باطلٍ من الاباطيل وكل قيدٍ من القيود ، فما كان عقله يأنس الأ بقديم الاشياء وما كان هذا العقل ينقبض الا عن ظلامها ففي كل يوم كان يطلع على العالم بأفكار حديثة فما كان غذاؤه الا الافكار والا المعاني ، لقد سكر كل حياته بألوان الأدب وبرنات الفاظه وثمل كل عمره من لذة العلم فجمل هذا الأدب وهذا العلم نزهة عقله ومشحذة طبعه ويجع نفسه وعمارة صدره !

دمشق : في ٢ نيسان ١٩٣٢

شفيق جبري

ARCHIVE
http://archivebeta.sakhrit.com

صفي الدين الحلي

—٭—

هو الشاعر المطبوع أبو المحاسن عبد العزيز بن سرايا الشهير بصفي الدين الحلي . والحلة المنسوب اليها الشاعر هي حلة بني مزيد ، وتسمى حلة بابل لوقوعها قرب بابل القديمة الى الجنوب ، الا أن أطلال بابل على شاطئ الفرات الشرقي ، والحلة على شاطئه الغربي شمالي أطلال الكوفة ولا تزال الحلة عامرة الى عصرنا ، وبنو مزيد أصحابها بطن من بني أسد بناها منهم الامير سيف الدولة صدقة بن منصور بن دبيس (كوبير) ابن علي ابن مزيد الاسدي سنة ٤٩٥ في مبدإ الدولة السلجوقية . وكانت من أرق مدن العراق غير أن توارد الاعراب عليها ونزولهم بها جعلها كثيرة الفتن والحوادث

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الحالة السياسية والاجتماعية في عصره

نشأ المترجم في عصر الدول التركية التي كان سلطانها حينئذ يمتد من شواطئ المحيط الاعظم (الهادي) الى برقة غرباً ، ومن شواطئ المحيط القطبي الشمالي الى حوض الكنج واليمن ودنقلة جنوباً ، ولو كان هـذا الملك العظيم مستظلاً براية واحدة ومحكوماً بنظام واحد لنشأ في أحضانه أسمى حضارة شهدها سكان كوكب الارض ، ولكن سلطان هذا الجيل التركي لم يكن متوحداً الا في الجذم الطوراني وأصول اللغة ، وكان متقاطعاً في الدين والمذهب ، متدابراً في أصول الحكم والسياسة متفنناً في اختراع صنوف الظلم والقسوة ، فلم يجر على العالم الا الفتن المبيرة واختفاء آثار الحضارات السابقة لحكمه ، فتكونت منه دول لا تحصى من التتار في الصين وشمال آسيا وأواسطها وشرقي أوربة ، ومن بقايا السلجوقيين في الجزيرة وآسيا الصغرى وشمالي الشام ، ومن المماليك التركمانية بالشام ومصر وبرقة والنوبة والحجاز . وكان ملوك كل دولة من هذه الدول الكثيرة يحكمون

البلاد بولاة وعمال من الترك مؤيدين بجيش من جنسهم وكان من الرعايا المقهورين كل رجال القضاء والادارة وجباية الاموال واعمال الري والعارة . وفي الجملة أكثر أرباب الاقلام والادباء والمدرسين والمؤلفين ، ولذلك كان تأثير سلطانهم في اللغات الوطنية وآدابها ضعيفاً بالاضافة الى تأثيره في اضطراب الأمن وزعزعة أركان الحضارة القديمة ، وبذلك بقيت اللغة والآداب الصينية غالبة على مغول الصين ، والفارسية غالبة على مغول فارس وأواسط آسيا وعلى بقايا السلجوقيين فيها ، والعربية غالبة على الدويلات المتشعبة من السلجوقية في العراق والجزيرة وعلى دولة المماليك بمصر والشام ، ومن تلك الدويلات دويلة كان ملوكها سلالة مملوك تركي من مماليك (ملك شاه السلجوقي) يدعى (أرتق) .

صرف شاعرنا أكثر عمره في خدمة ملوكها . وكان الشأن في كل أسرة ملكية من الترك في العراق والجزيرة ومصر والشام اذا طال أمد حكمها في بيئة عربية أن يستعربوا أو يلموا بالآداب العربية ، فيروج عندها الادب العربي بعض الرواج ويعجبهم تأليف الكتب بأسمائهم ، وربما اتخذوا من أدباء العرب بطانة لهم وندماناً وسماراً ، بل ربما نظم بعضهم الشعر لهذا نجد شاعرنا يتنقل أحيانا في العراق والجزيرة والشام ومصر ويعيش بالادب ، ونجده يكثر في شعره من وصف غلمان الاتراك لكثرتهم في زمنه وامتلاء اسواق الرقيق بهم مما يسببه المغول في غاراتهم على شمالي آسيا وشرقي أوربة ، وكثر في شعره الطرديات لولع الترك بالصيد .

نشأته . — ولد المترجم سنة ٦٧٧ هـ بمدينة الحلة من أسرة عربية من قبيلة سنبس احدى قبائل طيء ، وكانت عشيرته على اشتغال كبرائها بالفقه والأدب على حالة بداوة : تحمل السلاح ، وتشترك في الغارات والحروب ، وتطالب بالثأر ؛ فنشأ المترجم نفسه على هذه السجايا ، فتأدب على أهله وعلماء بلدته وعلماء بغداد لقربها منها وشب مطبوعاً على قول الشعر ينظمه تأدباً وتطرباً لا استجداء به وتكسباً كما قال هو عن نفسه .

وحدث في شبيبته ان شبت فتنة بين أسرته المسماة آل محاسن وبين أسرة أخرى تسمى آل ابي الفضل فاغتال آل ابي الفضل خالاً له يدعى صفي الدين ابن محاسن : اغتالوه في مسجده ، وكانوا أقوى من أسرة المترجم ، فأعمل صفي الدين لسانه وقلمه وقصد أمراء النواحي ورؤساء العشيرة يستنجدهم على أخذ ثأر خاله من آل ابي الفضل ؛ وحدثت بين

الفريقين موقعة انخذل فيها آل ابي الفضل فافتخر صفي الدين هو وعشيرته باخذ ثأرهم من عدوهم . فذلك حيث يقول في مطلع قصيدته الشهيرة :

سلي الرماح العوالي عن معالينا واستشهدي البيض هل خاب الرجا فينا

الا ان هذه الموقعة لم تكن خاتمة الفتن ، بل بقيت العداوة يتجدد أوارها ويشتد أذى آل ابي الفضل على المترجم وأسرته حتى أزعجوه عن المقام في بلده ، وخشي غائلتهم ؛ فخرج مهاجراً حتى ألقى عصاه في مدينة ماردين من إقليم دياربكر بارض الجزيرة الفراتية مستظلاً بحماية ملوكها من بني أرتق « كفلفل » وهم ملوك دولة من فروع الدولة السلجوقية دخلوا في طاعة التتار وحاسنوهم فأبقوهم على حكم ماردين وإقليم ديار بكر . ومؤسس ملكهم أرتق الكبير وهو مملوك شجاع من مماليك آل سلجوق . وعاصر المؤلف منهم الملك المنصور نجم الدين غازي وولده الملك الصالح ، وعاملاه معاملة كريم مستجير بهما لا معاملة شاعر مستجد . وكتب الى أهله بالحلة عند وصوله الى ماردين يقول :

ألا بلغ هديت سراة قومي بحلة بابل عند الورود
الا لا تشغلوا قلباً بعدي فاني كل يوم في مزيد
لاني قد حللت حمى ملوك ربوع عبيدهم كهف الطريد
فمن يك نازلاً بحمى كئيب فاني قد نزلت حمى الاسود

وبقي في كنف الملك المنصور غازي يمدحه وينادمه حتى مات المنصور سنة ٧١٢ ومدحه بجملة مدائح منها القصائد المسماة بالأرتقيات ، وهي تسع وعشرون قصيدة كل منها تسعة وعشرون بيتاً على حرف من حروف المعجم يبدأ في كل بيت منها بحرف وبه يختم أي يكون روياً ومبدأ وجعلها ديواناً سماه « درر النحور في مدائح الملك المنصور » ثم كان في خدمة ولده الملك الصالح فخف على قلبه ومزجه بنفسه واصطفاه وأسبغ عليه نعمه وجعله في خاصة بطانته بنادمه ويؤانسه ، ويخرج معه الى الصيد والولائم ، وطاب له العيش في ماردين ، ووفرت نعمته واقبل على اللهو والطرب ونظم الشعر في الغزل والخمريات والدعابة والمجون حتى اذا ناهزت سنه الخمسين عزم على المتاب من شرب الخمر وارتكاب الآثام ، وجعل باكورة التوبة الرحلة لحج بيت الله الحرام وزيارة قبر النبي عليه الصلاة والسلام سنة ٧٢٤ هـ ودخل مصر بعد حجه سنة ٧٢٦ وسلطانها يومئذ الملك الناصر محمد بن قلاوون ووزيره و كاتب

سره القاضي علاء الدين بن الاثير الجزري الكاتب المؤلف المشهور ، فمدحه ومدح الناصر بقصيدة طنانة عارض بها قصيدة ابي الطيب « بابي الشموس الجانحات غواربا » ومطلعها :

اسبلن من فوق النهود ذوائبا فتركن حبات القلوب ذوائبا

فأغدق عليه نعمه وهداياه . ثم رحل الى الشام فنزل بدويلة من بقايا آل أيوب مستظلة بحماية سلاطين مصر من آل قلاوون ، وتحكم مدينتين او ثلاثاً من مدن وادي العاصي وحاضرتها مدينة «حماة» وكان سلطانها في ذاك الوقت الملك المؤيد ابو الفداء عماد الدين اسماعيل مؤلف كتاب « تقويم البلدان » والتاريخ المسمى « المختصر في أخبار البشر » فنزل ضيفاً عليه فأكرمه ، وبقي أثيراً عنده مدة ، ويظهر من مراثيه ومدائحه ومكاتباته انه أقام بالشام عدة سنين ، ولقي بدمشق الشهاب محموداً الحلبي وابن نباتة المصري . وتكسب فيها بالتجارة . ثم لحق بمخدومه بماردين بعد غيبة طويلة . وصار يختلف الى بلاد الجزيرة وبغداد والشام ويراسل أدباءها ويمدح ملوكها ويرثيهم . ولم نعلم عن يقين البلد الذي مات به ونرجح أن تكون وفاته بماردين . ومات سنة ٧٥٠ هـ .

علمه وأدبه . — كان علم صفي الدين لا يعدو اللغة وآدابها وكان يحفظ كثيراً من شعر المتقدمين المجودين في اللفظ والأسلوب من أمثال ابي نواس والبحتري وابي تمام وابن الرومي وابن المعتز ، فأثرت فيه خمريات ابي نواس وغلامياته وأثرت فيه أوصاف ابن المعتز وطردياته ، وكثيراً ما أغار على معاني هؤلاء ، ولم يكن علمه بغريب اللغة ولا تاريخ العرب في جاهليتهم واسلامهم موازياً لشهرته بالادب ولا بافتخاره بالانتماء الى سنبس من طيء ، ومبلغ علمه من الادب واللغة أنه حفظ الكثير من الشعر فأكسبه ملكة قلما تهيأت لأحد في عصره .

ذكاؤه وتوقد خاطره . — كان صفي الدين على جانب عظيم من توقد الخاطر وسرعة البديهة يعرف ذلك من قرأ ديوانه فرأى فيه الكثير من غرائب الصناعة البديعية كالاكثار من عجيب التصحيف وما لا يستحيل بالانعكاس والاكثار من القصائد المهملة الحروف والمعجمتها المصغرة الالفاظ وذوات القافيتين وضوابط الشطرنج والعلوم ، ولو انه بذل بعض هذا الجهد في استخلاص لباب اللغة والغوص على المعاني الرائعة لبذ المتقدمين ، ولكن هكذا كان ديدن أهل عصره ورغبتهم من الادب .

أخلاقه . — نشأ صفي الدين في الحلة على فطرة عربية من الشمم وإباء الضيم ، وحب الإنتقام والاخذ بالثار ، وشهود المعارك والرغبة عن ذل السؤال ، ونظم الشعر للتطرب والرياضة لا للاستجداء كما يتحدث بذلك عن نفسه في مقدمة ديوانه وكما يستخلص من قراءة شعره في شبابه غير انه لما لحق بخدمة متأخري آل أرتق قبيل انتهاء دولتهم ، وكانوا أهل ترف وانهماك في اللذات ومعاقرة للخمر ولهو بالصيد والقنص اعتاد من عاداتهم ، ونادمهم في مجالسهم ، وتغزل في غلمانهم . وأفحش وفجر . ولما علت سنه عزم على التوبة والنسك وحلف الا يشرب الخمر ، ولكنه نقض التوبة مراراً فعاد وشربها مرضاةً للامراء والرؤساء .

ومن الغريب في امره تصريحه في قصيدة خمرية ذكر فيها تنغيص شهر رمضان على الشاربين لذاتهم بان لا ينسك الا بعد ٦٨ سنة من عمره وذلك حيث يقول منها :

فيه هجر اللذات حتم وفيه (غير مستحسن وصال الغواني)

وقبيح في التنسك الا (بعد ستين حجة وثمان)

ولا أدري سبباً لارجاء التوبة النصوح الى هذا السن المضبوطة بالعدد الا تضمينه شطري مطلع القصيدة التي بعث بها الشريف ابو ابراهيم موسى بن اسحق الى ابي العلاء المعري وهذا هو المطلع :

غير مستحسن وصال الغواني بعد ستين حجة وثمان

فأجابه ابوالعلاء بنونيته الشهيرة التي مطلعها :

علّلاني فان بيض الاماني فنيت والزمان ليس بفان

ولا ندري على اي حال انتهت حياته ، وكان الحلي يتشيع نوعَ تشيع يترضى عن الصاحبين ، وينكر على الأمويين والعباسيين جد الانكار ، وتلك نزعة قديمة العهد في أعراب الفرات والجزيرة منذعهد علي ومعاوية وأرسخها فيهم وجود مشاهد النجف وكربلاء بين ظهرانيهم .

شعره . — نشأ صفي الدين في القرن الذين خلفوا قرن القاضي الفاضل وانتحلوا طريقته في التهافت على استعمال المحسنات البديعية والشغف بها شغفاً أخرجهم عن قصد البلاغة فكان معاصراً لكثير من كبار ادبائهم وشعرائهم ومؤلفيهم من أمثال شهاب الدين محمود

الحلبي وابن فضل الله العمري وابن نباتة المصري وصلاح الدين الصفدي وعلاء الدين بن الاثير والملك العالم المؤرخ الاديب مؤيد الدين صاحب حماة ، فكان صفي الدين علماً شامخاً بين هؤلاء الاعلام معترفاً له بالسبق في فنون من الشعر والاجادة في أخرى ، وكلهم كاتبه وراسله وعارضه وعابثه فاذا وازناه بهم واحداً واحداً من كل وجه طال بنا المقام ، ولكنا نشير اليك هنا بأن شهاب الدين كاتباً ومؤلفاً أرجح منه شاعراً وأن صناعته في الكتابة أروع من صناعة صاحبنا: فصفي الدين اشعر منه واكثر طروقاً لفنون الشعر وأبوابه وأن ابن فضل الله العمري امام لايجارى في الادب والتاريخ ووصف الارضين والشعوب والملل والنحل و كتابة الترسل ، وصفي الدين في غير الادب ليس هنـاك فهو يفضل ابن فضل الله في الشعر ويفضله في كل ما تقدم ، وأن الصفدي وان كان ذائع الصيت في الشعر وانتحال البديع الا أن التأليف غلب عليه ، فزاحمت ملكة التأليف وتقرير الحقائق ملكة الشعر وانتزاع الخيـال وبذلك يكون صفي الدين أشعر منه وأطبع في الشعر ، وكذلك شأنه مع ابن الاثير . بقيت الموازنة بينه وبين ابن نباتة وهما متشابهان في كثير من الامور ، فهما شاعران مطبوعان غلبت فيهما ملكة الشعر على كل صناعة ادبية ، بل كانا أشعر شعراء المشارقة في عصرهما ويمتاز ابن نباتة برقة اللفظ ، ومراعاة الذوق الادبي ، ودقة النكتة ، ولطف الكناية والتعريض ، وليس ذلك فيه بعجيب ؛ فهو مصري صميم تخرّج بشعر القاضي الفاضل ، وابن سناء الملك ، والبهاء زهير ، وابن مطروح ، وابن قلاقس الاسكندري ، فانطبعت في شعره صورهم وتقمصت به أرواحهم ، وبرع ابن نبـاتة في التورية جد براعة حتى لم يبق لاديب معه فيها كبير نصيب ، ولم تقل كتابته على الطريقة الفاضلية عن شعره كثيراً ؛ فهو كاتب بديعي بارع متكسب بصناعة الكتابة والترسل في دواوين مصر والشام .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

واما صفي الدين فشاعر بديعي صقيل اللفظ رائع الاسلوب متفنن في كل غرض صاحب مقطعات ومطولات ومسمطات وموشحات وينظم من أوزان العرب والمولدين ، ويقول الدوبيت ومجزو الدوبيت . وهو من الغلاة في البديع فيجيد المطولات المؤلفة كلماتها من الحروف المهملة تارة والمعجمة أخرى أو التي حرف منها مهمل وحرف معجم أو التي كلمة منها مهملة والاخرى معجمة أو التي كل أسمائها مصغرة ، أو لاتستحيل بالانعكاس ، ثم هو بعدُ غاية في الجناس ، الا أنه ليس له في التورية كثير غناء ولكن الاديب الحاذق يرى

أن كل ماامتازبه الحلي داخل في باب التكلف والتحذق لا في باب الانطباع والرقة والرشاقة . وبذلك يُفضَّل ابن نباتة في جملته على الحلي في جملته .

« للبحث صلة »　　احمد الاسكندري

آراء وافكار

استفهام

طالعت في الجزء الاخير من مجلة المجمع فصلاً للاستاذ المحقق الشيخ بهجة الأثري فيه لغة وأدب وتشريع وتاريخ وقد وافقت على كل ماجاء فيه تقريباً . وأسر ما سرّني منه إنكاره الحيل الشرعية واستهجانه تسمية كتاب الامام محمد بالحيل واستشهاده باقوال ابن قيم الجوزية على إبطال هذه الحيل من أصلها وذلك في كتابه القيم « اعلام الموقعين » .

http://Archivebeta.Sakhrit.com

أما الذي لم أوافق عليه في هذا الفصل الممتع فهو قوله : « ومن مأثور أقوالهم ركب جنح نعامة » لمن جدّ في امر . فان المثل « ركب جناحي نعامة » أو « جناح نعامة » ولا يخفى ان الجنح غير الجناح . فالجنح هو الجانب ويقال جنح الليل بضم فسكون أو بكسر فسكون أي جانبه وقيل اوله وقيل قطعة منه نحو النصف . ويقال كأنه جنح ليل يشبه به العسكر الجرار . ويقال جنح الطريق ايضاً أي جانبه . وعلى كل حال لم يرد «جنح نعامة» ولا جنح اي طائر وانما هو جناح . واما استشهاد الاستاذ الأثري بقول شاعر الحماسة :

كأن بصحراء المربط نعامة　　تبادرها جنح الظلام نعائم

فهو دليل على قولهم «جنح الليل» و « جنح الظلام » لا على « جنح النعامة » ولا أزال أحفظ ان اليازجي الكبير في مقاماته استعمل «الجنح» بمعنى « الجناح » مضافاً الى الطائر فأخذ عليه في ذلك احمد فارس صاحب الجوائب . فان كان عند الاستاذ الأثري نص أو شاهد يوثق به على ورود جنح بمعنى جناح مضافاً للطائر فليدل به فانما انا مستفهم .

جنيف :　　شكيب ارسلان

أن كل ماامتازبه الحلي داخل في باب التكلف والتحذق لافي باب الانطباع والرقةوالرشاقة . وبذلك يُفضّل ابن نباتة في جملته على الحلي في جملته .

« للبحث صلة » احمد الاسكندري

آراء وافكار

استفهام

طالعت في الجزء الاخير من مجلة المجمع فصلاً للاستاذ المحقق الشيخ بهجة الأثري فيه لغة وأدب وتشريع وتاريخ وقد وافقت على كل ماجاء فيه تقريباً . وأسر ما سرّني منه إنكاره الحيل الشرعية واستهجانه تسمية كتاب الامام محمد بالحيل واستشهاده باقوال ابن قيم الجوزية على إبطال هذه الحيل من أصلها وذلك في كتابه القيم « اعلام الموقعين » .

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

أما الذي لم أوافق عليه في هذا الفصل الممتع فهو قوله : « ومن مأثور أقوالهم ركب جنح نعامة » لمن جدّ في امر . فان المثل « ركب جناحي نعامة » أو « جناح نعامة » ولايخفى ان الجنح غير الجناح . فالجنح هو الجانب ويقال جنح الليل بضم فسكون أو بكسر فسكون أي جانبه وقيل اوله وقيل قطعة منه نحو النصف . ويقال كأنه جنح ليل يشبه به العسكر الجرار . ويقال جنح الطريق ايضاً أي جانبه . وعلى كل حال لم يرد «جنح نعامة» ولا جنح اي طائر وانما هو جناح . واما استشهاد الاستاذ الأثري بقول شاعر الحماسة :

كأن بصحراء المربط نعامة تبادرها جنح الظلام نعائم

فهو دليل على قولهم «جنح الليل» و « جنح الظلام » لا على « جنح النعامة » ولا أزال أحفظ ان اليازجي الكبير في مقاماته استعمل «الجنح» بمعنى « الجناح » مضافاً الى الطائر فأخذ عليه في ذلك احمد فارس صاحب الجوائب . فان كان عند الاستاذ الأثري نص أو شاهد يوثق به على ورود جنح بمعنى جناح مضافاً للطائر فليدل به فانما انا مستفهم .

جنيف : شكيب ارسلان

ملاحظات

اطلعت في الجزء الثاني عشر من المجلد الحادي عشر من مجلة المجمع العلمي على مقال للاستاذ سليم عنحوري يحتوي على ترجمة الحلاج فرأيت فيه من المآخذ ما يجب التنبيه عليه.

ذكر في ص ٧٤٦ و٧٤٧ ان الذي دعاه الى ترجمة الحلاج كونه أديباً متكلماً ينظم شعراً عربياً خالص العروبة لاممز فيه ولا لحن يذهب فيه مذهباً غريباً — الى ان قال: فالحلاج إذن شاعر له مزية على غيره هي تفرده بطريقة اختطها لنفسه.

والحقيقة اننا لم نر أحداً ممن ترجم الحلاج مع كثرة من ترجمه قال عنه إنه أديب أو شاعر لتكون له طريقة خاصة أو شاعرية خاصة. وغاية ماقالوا عنه انه نسبت اليه أبيات كان يتمثل بها. وجميع ما نسب اليه لا يتجاوز ثلاثين بيتاً من الشعر مع جواز انه لم ينظمها. ومثل هذا العدد الضئيل لا يحشره في جملة الشعراء حتى ولا النظامين. ويشهد لهذا ان صاحب المقال نسب الى الحلاج هذين البيتين (انا من أهوى ومن أهوى انا. الخ) مع ان ابن خلكان في تاريخه ذكرهما في ترجمة الحلاج ولم ينسبهما اليه، ونسب اليه ايضاً: (أرسلت تسأل عني كيف كنت وما. الخ) ونسب ابن خلكان اليه ايضاً هذين البيتين ثم ذكر ان ممن تمثل بهما ايضاً سمنون بن حمزة الزاهد وهو من المعاصرين للحلاج. فهذا يؤيد ان مانسب اليه لايخرج عن حد النسبة أو التمثل وأي رجل عنده أدنى ملكة في العلم لايتمثل باقوال الشعراء.

وجاء في ص ٧٤٤ ان الحلاج صحب حال حياته القاسم بن الجنيد والثوري والحسن البصري فصحبته للحسن البصري وللثوري لم تر احداً قال به قبله. كيف وبين وفاتيهما وولادته عشرات من السنين فوفاة الثوري سنة ١٦١ هـ ووفاة الحسن البصري سنة ١١٠ هـ فاذا ثبت ان الحلاج قتل سنة ٣٠٩ هـ وبالغنا في عمره وقلنا سنه يوم قتل ستون سنة فتكون ولادته عام ٢٤٩ وعليه فتكون وفاة الثوري قبل ولادة الحلاج بـ ٨٨ سنة. ووفاة الحسن البصري قبل ولادته بـ ١٣٩ سنة فكيف تسنى له الاجتماع بهما؟

وقوله: القاسم بن الجنيد خطأ. وانما هو ابو القاسم الجنيد بن محمد.

وجاء في ص ٧٤٩ و ٧٥٠ ان الوزير حامداً أحضر القاضيين: ابا عمرو بن العلاء وجعفر

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

ابن بهلول في محاكمة الحلاج . فزيادة ابن العلاء وهم ايضاً لان ابا عمرو بن العلاء توفي سنة ١٥٤ فيكون بين وفاته ومحاكمة الحلاج نحو من ١٥٥ سنة والذي في تاريخ ابن خلكان : القاضي ابو عمر بغير واو ولم يذكر اسمه ولا اسم ابيه .

وجاء في ص٧٤٤ سطر١٤ العباس بن سريج وانما هو ابوالعباس بن سريج كما في ابن خلكان .

هذا ما رأيته من المآخذ الجديرة بالذكر وهناك امور أخر أضربنا عنها صفحاً .

دمشق : محمد احمد دهمان

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

مطبوعات حديثة

—«»—

آداب المعلمين

« مما دون محمد بن سحنون التنوخي عن أبيه . عني بنشره السيد حسن حسني »

« عبد الوهاب التونسي طبع بمطبعة العرب بتونس سنة ١٩٣١ ص٧٦ »

هذا الكتاب من مطبوعات اللجنة التونسية لنشر المخطوطات العربية نشرها صديقنا العلامة السيد حسن حسني عبدالوهاب الذي اشتهر بتآليفه وتحقيقاته الكثيرة باللغتين العربية والفرنسية قدم له بمقدمة مستوفاة للتعريف بالمؤلف وهو من أهل القرن الثالث للهجرة وشفعها بلمحة عن الكتاتيب بافريقية في زمن المؤلف فقال : « ان الغزاة العرب من الصحابة وتابعيهم لما فتحوا إفريقية في أواسط القرن الاول للهجرة كان الكثير منهم في عيالهم وذراريهم فعندما أناخوا بمعسكرهم وخطوا (قيروانهم) كان أول ماأنشأوا الدور والمساجد ثم التفتوا الى تعليم صبيانهم فاتخذوا لهم محلاً — كتاباً — بسيط البناء يجتمعون فيه لقراءة كلام الله العزيز . . . حكى غياث بن ابي شبيب قال : كان سفيان بن وهب صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم يمر علينا ونحن غلمة بالقيروان فيسلم علينا في الكتاب وعليه عمامة قد أرخاها من خلفه . » « ولم يزل شأن الكتاتيب في نمو وعددها في ازدياد وتكاثر في العاصمة وفي المدائن الإفريقية الكبيرة كتونس وسوسه وصفاقس حتى لم يخل منها درب من الدروب أو حي من الأحياء وربما تعددت الكتاتيب في الحارة الواحدة مثلما تعددت المساجد في الحارات . ولا يجب ان اعتبرت الكتاتيب في القديم كملحقات بالمساجد وتوابع لها بل انما وجدت ايضاً في دور الأعيان والاغنياء ، وبالاحرى في قصور الوزراء والامراء . » وقال: ان التعليم الابتدائي ما كان يختص بالولدان دون البنات بل

انه كان شاملاً للجنسين لا سيما عند المياسير وذوي الحيثيات وأرباب المناصب العالية . ومما لاريب فيه ان معلمات من فاضلات النساء كن يهذبن ويعلمن الجواري والبنات المقصورات في الدور والقصور في كل عصر من العصور . ثم ذكر طريقة التعليم في الكتاب وما الى ذلك من الفوائد التي حققها من التاريخ فكانت صورة صادقة لعناية المسلمين بتعليم أبنائهم .

أما متن الكتاب الذي علق عليه وقدم له هذه المقدمة البارعة وفنى عليه بآراء بعض علماء العرب في التربية كابي بكر بن العربي وابن خلدون الحضرمي — فهو على أسلوب الرواية عند المحدثين ، ذكر فيه ماجاء في تعليم القرآن وفي العدل بين الصبيان وفيما يجوز من الأدب ومالا يجوز وفي واجبات العلم واجارته ومايجب له من لزوم الصبيان الى آخره . فجاء الأصل والتعليق من جميل ما يقتنى ، يستفاد منه على صغر حجمه . م . ك

ARCHIVE

تاريخ الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده

« الجزء الاول وفيه سيرة السيد جمال الدين الأفغاني تأليف السيد محمد »
« رشيد رضا . الطبعة الاولى في مطبعة المنار بمصر سنة ١٣٥٠ — ١٩٣١ »
« ص ١١٣٤ »

كان قراء العربية أشوق ما يكون لصدور هذا الكتاب بعدان صدر الثاني والثالث منه منذ سنين . وهما في منشآت أستاذنا الشيخ محمد عبده وماقيل في تأبينه ورثائه . وهذا الجزء في سيرته توسع فيها صديقنا الاستاذ توسعاً عظيماً لم يترك معه من سيرة المترجم له مجالاً لقائل وشفعها بوثائق تاريخية أهمها ما كان من قلم المترجم له رحمه الله مثل ترجمته لنفسه منذ نشأته ومفكراته في الحوادث العرابية ، وقد اتهم بأنه مشايع لرجال الثورة فحبس أشهراً ثم نفي الى الشام ثلاث سنين ، وقد توسع المؤلف ايضاً فيما وقع للاستاذ الامام في السياسة ، وذكر أثره في نهضة مصر العلمية ، وهذا أهم من حياته السياسية . فان في حياته العلمية عبراً كثيرة ودروساً مفيدة في الاصلاح الاسلامي ، تعلم وتذكر وتثقف ، ولا يستغني

عن تدارسها من يضرب باصفر سهم في الحركة العلمية العصرية . وقد لحظنا من مجموع هذا التاريخ ان المترجم له زُجَّ في السياسة زجاً فكان مضطراً الى ركوب مراكبها الخشنة ولذلك رأيناه بعد ان صفا له الزمن وكان مفتي مصر الاكبر يتخلى عن السياسة ولم يرض ان يدخل غمارها بالفعل مع انه أُريد على الدخول فيها قائلاً في الاعتذار انه ُخلق معلماً ويرجو ان يموت معلماً . وهكذا كان الى ان ناداه ربه الى جواره . لاجرم ان نشر هذه الوثائق المفيدة برمتها قد أورث الكتاب تطويلاً ولكنه تطويل محبوب غير مملول ، وقد حفظ المؤلف بهذا الصنيع جانباً كبيراً من تاريخ مصر الحديث ومثالاً صادقاً عن وقائع يهتم لها أبناء هذا الشرق القريب عامة . وكان المؤلف يستخدم أُسلوب المعلمين في التدريس باسلوبه فيكرر العبارة لترسخ في أذهان الطلبة ويورد عليها الشواهد لبيان مافيها من المقاصد . وقد يرى المطالع انه قد خرج من الموضوع كثيراً مما يقرأ من الاستطراد الذي قد ينفع الاستغناء عنه ثم لايلبث المؤلف ان يعود بالقاريء أدراجه فيدرك انه في صدد قراءة سيرة عظيم من عظماء الاسلام .

وهذا النمط من التأليف مما يجمل في مطاويه من مائة عربية شائقة لا نزاع فيها هو فيما اختص به فيما نرى الكاتب المدقق السيد محمد رشيد رضا وقد يكثر في كتابته من ذكر خصوصيات لاشأن لها في العموميات . وكان الموضوع يكتسب روعة وجلالاً أكثر لو خلت منها مكتوباته . وهذه النمشة الطفيفة لاتقدح في ذاك الوجه الجميل .

ومما يجب ان يستفاد منه ان الرجل الحكيم الشيخ محمد عبده بدأ بتعلم اللغة الفرنسية في الرابعة والاربعين من عمره وقد كاملناه قبيل وفاته فكان يتكلم بها مع أحد علماء المشرقيات برشاقة لاغبار عليها ولم نحص عليه مدة ساعة كاملة غلطة أوشبه غلطة . وقد بدأ بتعلمها على أُستاذ فكان هو يتلو أمامه قصة لاسكندر دوماس وذاك يصلح له النطق ويفسر له الكلم ثم تعلم نحوها بالتدريج وكان يسافر كل سنة الى سويسرا وفرنسا ويحضر في جنيف دروس العطلة في كليتها فتعلم الفرنسية في أوقات الفراغ مع اشتغاله بالقضاء وقال عن نفسه في هذا الصدد : « ثم ان الذي زادني تعلقاً بتعلم لغة اوربية هو اني وجدت انه لايمكن لاحد ان يدعي انه على شيء من العلم يتمكن به من خدمة أُمته ويقتدر به على الدفاع عن مصالحها كما ينبغي الا اذا كان يعرف لغة اوربية كيف لا وقد أصبحت مصالح المسلمين